من برديات الوصايا..

"ما من أحد استطاع أن يصل إلى آخر حدود الفن، ولا يوجد فنان بلغ الكمال في إجادته."

obeikan.com

obeikan.com

إهداء:

كتب الأستاذ محمد السباعي – والد الأديب يوسف السباعي - يقول:
"رب روح تهيم الدهر فلا تصادف إلفها، تذهب على وجهها في الآفاق فينكرها الناس، وتنادي فيجيبها العدم، وقد حال الزمان والمكان بينها وبين توأمها الذي نظمه الله معها قبل ميلاد الدنيا، وقد يكون ذلك التوأم في أقصى الأرض أو دون المريخ أو تحت القمر، أو وراء ذلك الجدار أو ذلك الباب، وكأني بهذا الورد الناضر على أغصانه، سيذبل على قبر توأمك الذي تنشده ولم تره!. "

لذا، أهدي إليك تلك السطور يا إلفي وتوأمي، سواء كنت في أقصى الأرض أو دون المريخ أو تحت القمر، فأنا على يقين من أنك هنا في زمن ما من عمري.. أو بعد عمري!..

أميـرة

openkan.com

obeikan.com

أهلًا بكم في كيمي..

(كيمي).. أي الأرض السمراء.. مصر الفرعونية

نحن الآن أثناء حكم الأسرة الحادية عشرة، كانت (طيبة) هي العاصمة الرسمية بعد إعادة توحيد القطر من جديد، بينما كانت (أبيدوس) هي العاصمة الدينية التي يحج إليها المصريون لوضع نذورهم بعد أن انتشرت المعتقدات الجنائزية حول أسطورة الإله (أوزوريس)، وازدياد نفوذ كهنة معبد (آمون) بشكل فاق حتى نفوذ الفرعون والأسرة الحاكمة نفسها. وكان (حابي) إله النيل الذي ظُلم كثيرًا بما ادّعاه الكثيرون حول قصة عروسه التي تلقى إليه كل عام كوفاء لعطاياه، وفي الحقيقة تلك ليست إلا خرافة، و(حابي) لم يستقبل في عيد وفائه عروسًا آدمية أبدًا، وكانت عروسه دائمًا دمية خشبية أو ما شابه، وقد ثبتت حقيقة ذلك بالأدلة التاريخية...

لكن دعونا نصدق تلك الخرافة لوهلة تجمعنا معًا بين تلك السطور!.

obeikan.com

حابي.. تبًا لك!

obeikan.com

obeikan.com

كان المرسى يدنو مع بزوغ الفجر، والسحب الصغيرة منتشرة في السماء الشاحبة وتكاد تحجب الهلال المرتعش في وهن، وبدت صفحة النيل ساكنة رغم ضربات مجدافي القارب المتتابعة في هدوء. أما هي، فكانت عبراتها تروي شفتيها الهامستين في خفوت: "أشكر لك قبولك دعواتي أيها الإله.. أشكر لك عينك الساهرة على حمايتي وحماية أهلي.. يا إلهي.. كُن معنا..". ظلت (ماني) تردد كلماتها تلك وهي تهبط من القارب مع أسرتها إلى ذلك المرسى على ضفاف النيل، والذي كاد أن يخلو من المارة في ذلك الوقت من الصباح.

ساعدها (سنحوت) على حمل أغراضها بينما فعل أخوها (محب) المثل مع أبويهما، واستندت (ددت) إلى مرفقه في إرهاق وهو يبتسم لها في حنان جعل (ماني) تبتسم بدورها أخيرًا. حتى في مثل تلك اللحظات الحالكة قد تلتمع أنجم الهوى في عيون العاشقين، ربما تلك القلوب التي تشاركنا آلامنا وأحزاننا هي الأكثر إخلاصًا لنا عمن سواها، لقد اكتسبت (ددت) تقدير واحترام الجميع بما تفعله من أجل (محب). ولأنه ليس أسوأ من عيون الفضول تفسد روعة البدايات، جلست (ماني) متظاهرة بعدم الانتباه لتلك الخيوط الخفية التي تُنسج فيما بينهما، لكن عينيها اصطدمتا بعيني (سنحوت) الحنونة فأشاحت بوجهها مرة أخرى ولكن في خجل!..

تلك الابتسامة لم تصمد طويلًا حين جذبتها ذاكرتها - رغمًا عنها - بعيدًا جدًا.. حين كانت لا تزال طفلة دون العاشرة.. هناك.. في (أبيدوس).. في مدينة (آمون)[1]!.

***

كان المعبد مضاءً بنيران المشاعل الذهبية المتدلية من سقفه، وتحيط بساحته المتسعة أعمدة من الرخام الأبيض المموه بظلال سمراء شاحبة، ويتوسط الساحة مسرح من الرخام الأسود، وعلى مقربة منه كان المذبح يحتل الركن الأيمن بينما يقابله يسارًا كرسيان من العاج المذهب والمزين بالنقوش الفرعونية.

عند المذبح وقف رجل أصلع الرأس، يرتدي ثوبًا من الكتان الأبيض الفاخر المزدان بالقصب، وعاقدًا ساعديه داخل أكمامه الواسعة، فالتفتت تجذب ثوب أمها لتسألها في فضول عمن يكون ولماذا رأسه أصلع هكذا، فأجابتها أمها أنه كاهن (آمون) وأن كل الكهنة على هذه الصورة تمامًا مثل كاهن بلدتهم، فهزت الفتاة كتفيها دون أن تعلق، فلم تكن تحب كاهن بلدتهم هذا على الإطلاق!..

---

(١) (آمون – رع): المعبود الرسمي للمصريين في تلك الفترة، رمزه الشمس.

أشارت بعدها إلى الكرسيان المذهبان وهي تسأل مرة أخرى عما إذا كانوا سيرون الفرعون وزوجته حقًا، وشعرت بنوع من الإثارة حين أكدت لها أمها ذلك وهي تعطيها إحدى فطائر العيد، لكنها رفضت تناولها في نفور حين رأت رجلًا يتناول فطيرة مماثلة من أحد الكهنة وهو يقبل يده شاكرًا بعد أن أخبره الكاهن أنها مباركة بصلوات كبير الكهنة وتراتيله، لقد شعرت بالغيظ لأنه قبل يده حقًا!...

أخذت تتطلع حولها للكهنة الذين يروحون ويجيئون في ثيابهم الشاحبة الفضفاضة، وبينما هم يوزعون الفطائر على الحاضرين - المنبهرين بالمعمار الفاخر للمكان - دقت الطبول معلنة وصول الفرعون وزوجته، فضم الكهنة كفوفهم أمام وجوههم وأحنوا رؤوسهم قليلًا إلى الأمام بينما انحنى باقي الحضور تمامًا. حاولت (ماني) أن تختلس النظر نحوهما ولكن أمها جذبتها لتحني رأسها مرة أخرى، فحاولت أن تنفلت منها لتنظر لكن يد أمها منعتها، فهمست في غضب أنها تريد أن تراهما، فاستمالتها أمها قليلًا لتسمح لها أن تراهما بطرف عينها دون أن ترفع رأسها، بينما اتجه الفرعون وزوجته إلى حيث لا يزال يقف كبير الكهنة وركعا أمامه وهم جميعًا من خلفهما، في حين أقام الكهنة رؤوسهم وضموا كفوفهم إلى صدورهم وهم يستمعون إلى كبير الكهنة الذي بدأ يتلو صلواته طالبًا مباركة (رع) للفرعون وزوجته.

رفع كفيه ليضعها على كتفيّ الفرعون وزوجته مرتلًا: "شكراً لك أيها الإله.. جعلت علينا سيدًا مباركًا.. في نفسه بعضًا من (أوزوريس)[١] الخيّر.. اختاره الإله الصقر (حورس)[٢] ليكون خليفته في الأرض.. فشكرًا لعطيته.. باركه يا (آمون) واحفظه من شرور (ست)[٣].. واجعل واديه أخضر وأسعِد الرعايا به.. واحفظ زوجته الجميلة واجعلها في إخلاص ومحبة (إيزيس)[٤].. وأكرِم بها نساء الوادي وصغاره.. (آمون)، لك المجد العظيم.."

اتجه الفرعون وزوجته بعدها للجلوس يتبعهما كبير الكهنة، بينما جلس الحاضرون أرضًا حيث كانوا يقفون، فهمست (ماني) لأمها تسألها مرة أخرى عما يكون هذا التاسوع الإلهي، وقالت لها أمها في فروغ صبر أنها ستعلم من المسرحية التي سيمثلها الكهنة الآن[٥].

إثر عبارتها اختفى الكهنة خلف الأعمدة الرخامية وخفتت أضواء المشاعل إلا تلك التي تضيء مسرح المعبد الذي اعتلاه مجموعة من الكهنة، ثم تقدم أحدهم وهتف: "كان الكون فضاءً أزليًا بلا حياة أو

---

(١) (أوزوريس): إله الخصوبة (٢) (حورس): إله العدالة ورمزه الصقر (٣) (ست): إله الشر (٤) (إيزيس): ربة القمر والأمومة، واعتبرها قدماء المصريين عاهلة البلاد (٥) من طقوس الاحتفال بأعياد الفيضان تمثيل قصة التاسوع الإلهي الذي يحكم الكون. (الخروج من التابوت) د.مصطفى محمود .

حركة، ثم قام (رع) إله الشمس بخلق نفسه بنفسه.." ووقف الكاهن يقص عليهم كيف بعدها خلق (شو) إله الهواء و(تفنوت) ربة الندي والرطوبة من فمه وأنفاسه، ليتزوجا بعدها وينجبا (نوت) ربة السماء و(جب) إله الأرض، اللذين أنجبا من زواجهما الآلهة الأربعة لمملكة الموتى (إيزيس) و(أوزوريس) و(ست) و(نفتيس)[1]... وهكذا، تكّون التاسوع الإلهي الذي يحكم الكون!.

أحصت (ماني) عدد الكهنة الذين صعدوا ليمثلوا القصة على أصابعها الصغيرة وهتفت لأمها: "ألأنهم تسعة يا أمي!.." لكنها صمتت في فزع رغمًا عنها حين صرخ الكاهن: "وها هي الحرب الأزلية تشتعل بين الخير والشر".. وأخذ الكاهن يصف الحدث في إتقان، بينما اشتبك (أوزوريس) و(ست) في تعبير حركي

متقن عن المعركة، فـ(أوزوريس) كان يحذر أخاه من تبعة سرقته لملكوته وعرشه بينما كان (ست) يجهر له بالشر والإصرار على عدم التفريط فيما اغتصبه، وفي النهاية تغلب الغضب الأعمى على (ست) فطعن أخاه ومزق جثته أمام باقي التاسوع الإلهي!.

بكت (ماني) وهي تشاهد (أوزوريس) يترنح ويسقط أرضًا، بينما ركعت

---

(١) (نفتيس) ربة الشر.

(إيزيس) باكية تحاول لملمة أشلاء زوجها وأخيها أمام نظرات (ست) و(نفتيس) الشامتة والطامعة، لكنها مع ذلك لم تستسلم وظلت تتلو الصلوات لتحيي حبيبها بقوة سحرها المقدس، وأخذت تحرك يديها حول جسده فيما يشبه الرقية وهي تتلو الصوات: "(أوزير).. يا واهب الخصب والنماء.. يا باعث الحياة في أجنة البذور يا واهب الثمار للأشجار وناثر الأزهار على ربى الصحاري والسفوح والجبال.." وظلت (إيزيس) تردد صلواتها حتى تلاقت أشلاء (أوزوريس) ونهض ليضم كفيها أمام فرحتها الباكية!. قص الكاهن بعدها كيف قد حملت (إيزيس) من بذرة (أوزوريس) إله الإخصاب، ووضعت ابنها الإلهي (حورس) الصقر إله العدالة، وضم كفيه أمام وجهه ورتل قائلًا: "يا (حورس) الصقر.. يا عيوننا التي لا تنام أيها الساهر على العدالة.. ثأر أبيك بين يديك أمانة، أمل العدل بين يديك أمانة، خير الكون بين يديك أمانة (حور).. (حور).. (حور).."

شهقت (ماني) حين انطفأت المشاعل تمامًا ثم عادت للاشتعال من جديد، ليصطف كل من على المسرح في نهايته تاركين (حورس) الشاب في مواجهة عمه (ست) يسعى لثأر أبيه منه، ليسترد ملكه وعرشه ويهزم شرّه. وها هي المعركة تدور وتدور وباقي التاسوع يشهدها في حياد، ينتصر (حورس) في جولات منها وينهزم في أخرى، لكن في النهاية الغلبة كانت له ولـ(أوزير) دائمًا، وليس لشرور (ست) مهما طالت المعركة.

أضيئت المشاعل مرة أخرى مع انتهاء ذلك الفصل من قصة التاسوع التي يمتد تقديم فصولها إلى عدة أيام متتالية، فنهض الحاضرون لينحنوا مع خروج الفرعون وزوجته، ثم بدأوا هم في التجول داخل المعبد خلال فترة الاستراحة. سألتها أمها إن كانت قد علمت الآن ماذا يعني التاسوع، فأجابتها أنها علمت لكنها لم تفهم لماذا يعامل الناس هؤلاء الكهنة بكل ذلك الخوف، وحتى فرعون وزوجته انحنيا أمام كبيرهم، واستدارت تسأل أمها: "كيف ينحني فرعون لكاهن وهو حاكم كل هذه البلاد؟!.." فابتسمت أمها مؤكدة أنه كبير الكهنة وليس أي كاهن، عوضًا عن أن الكهنة هم ممثلو الإله في الأرض ويجب احترامهم.

"إن الناس يعاملون هؤلاء الكهنة كما لو كانوا هم الآلهة!.." قالتها (ماني) في إصرار عنيد فتسمرت الأم مندهشة مما تقول، لكنها أمسكت بيدها لتواصلا السير لملاقاة أبيها وأخيها (محب) اللذين فضلا الذهاب إلى السوق، بينما ظلت (ماني) متذمرة تردد على مسامع أمها أنها لا تفهم!..

***

اتخذ (محب) مجلسه هو و(ددت) بعيدًا قليلًا عن أبويه و(ماني)، ولمح (سنحوت) وهو يذهب لشراء بعض الطعام من بائعة وحيدة على شاطئ المرسى. لقد كان مندهشًا من تلك الثقة التي منحتها له (ددت)

لترتحل معه هو وأهله حتى هنا بلا مصير واضح، لكنها كانت لأول مرة تشعر بالسعادة والأمان رغم كل شيء. لقد نشأت (ددت) في كنف رجلٍ من البدو لا تعرف لها أهلًا غيره رغم أنه كان ينهاها عن منادته "أبي"!.. فما هي إلا رضيعة وجدها أثناء رعيه لغنماته ذات صباح، ولا يعلم كيف وصلت إلى تلك المنطقة المقفرة التي يحيون بها، لذلك كان على يقين من أنها خطية أحد البدو وينكرها رغم نشأتها بينهم!..

وحين أضحت هي في الثانية عشرة باعها ذلك البدوي إلى قصر الحاكم، وضاعت بعد قليل من ذاكرتها تلك الدموع التي التمعت بها أعين نساء البدو وهي ترحل، ورغم تيقنها أن أمها واحدة منهن إلا أنها آثرت النسيان حيث لا سبيل سواه. وبعد سنوات قليلة أضحت (ددت) فتاة جميلة، ابتسامتها الوديعة تصحبها أينما ذهبت فتعود وبصحبتها نظرات إعجاب الجميع، لذلك بعد فترة قصيرة اصطفتها زوجة الحاكم وصيفة لها، وحين رآها (محب) لأول مرة كانت أيضًا في صحبة زوجة الحاكم في حديقة القصر. لقد ترك كلاهما أثرًا غير هيّن في نفس الآخر، جعلهما يعتادان ويتعمدان تتبع بعضهما البعض، وكل منهما يظن أنه وحده من يشعر بما يشعر. كثيرًا ما كان يرغب (محب) في الذهاب إلى المعبد لتقديم الشكر إلى (رع) حيث هيأ له فرصة لقائه بها، فرغم أنه الابن الأكبر لتاجر المدينة إلا أنه فضل أن ينخرط في العسكرية وفي خدمة بلدته، ولولا ذلك التفضيل ما كان التقاها أبدًا،

لكن المدهش حقًا أنه لولا ما مرت به شقيقته (ماني) ما كانت لتتاح له فرصة أن تصبح (ددت) جزءًا من حياته بهذه الصورة!..

ابتسم (محب) وربت على يد (ددت) حين تذكر سؤالها له بالأمس عما إذا كان سيرحل بدونها لو لم يجدها بغرفة شقيقته، شرد في عينيها وتورد وجنتيها كأنما تستعيد نفس اللحظة معه الآن، لقد أقسم لها أنه كان سينبش كل أركان القصر بحثًا عنها ولم يكن ليرحل بدونها أبدًا، لقد همس لها - بصوت ينافس هدهدات النهر للقارب الذي كان يحملهم رقة - بأنه أحبها لحظة أن وقعت عيناه عليها وأنه عاهد نفسه أن تشاركه حياته لو وافقت هي.

جلس الجميع لتناول الطعام مع الوالدين وكل منهم يحمل نفس ذلك السؤال الذي طرحته (ماني) على والدها، لم رسوا هنا وهم لم يبتعدوا كثيرًا عن بلدتهم ولا يزالون في دائرة الخطر؟!.. فأجابهم أنه رأى أن يتوقف ارتحالهم عبر النهر هنا بعد أن استقر رأيه على الوسيلة المناسبة للبعد عن بطش كاهن البلدة بهم وفي نفس الوقت ضمان العيش في استقرار، لقد قرر الأب أن يتوقفوا عند ذلك الموضع من النهر ليتخذوا الطريق البري شرقًا إلى سيناء، حيث لن يتصور أحد عبورهم الصحراء!..

تبادل الجميع نظرات تحمل مزيجًا من التشكك والأمل، لكن (سنحوت) أول من أيد الفكرة لأنها تحقق له هدفين، حماية (ماني) من ذلك الطاغية واستمرار عمله في التجارة التي لا يعرف له عملًا سواها، فبالإضافة إلى الزراعة والصيد اللذان يعيش عليهما غالبية قبائل سيناء، فإن طريق التجارة فيها كان يتسع ليمتد إلى خارج (كيمي)، وكان على يقين من أن هذا ما دار بتفكير الأب حين اتخذ قراره. وبينما أخذوا يناقشون تلك الفكرة انتابت (ماني) حالة من التوتر والحزن جعلتها تنهض مبتعدة عن مجلسهم وترنو نحو النهر في صمت باكٍ!..

قبضت على كفي (سنحوت) الذي لحق بها ليضم يديها مطمئنًا وأخذت تفرغ كل مكنونات صدرها على مسامعه، لقد شعرت بالرعب مما كان يمكن لذلك الكاهن فعله بها وبأهلها، لكنها الآن مصابة برعب مماثل لتركهم بلدتهم التي عاشوا وتربوا بها، كما خالجها شعور بالقهر لهروبهم بتلك الطريقة!.. كان (سنحوت) يبادلها نفس الشعور وإن حاول أن يهدئ روعها قليلًا، أفهمها أنه لا يجبن عن المواجهة لكن بقاءهم - دون سبيل واضح للنجاة – ليس من الشجاعة في شيء!..

ظلت (ماني) صامتة تستمع لحديث (سنحوت) وهي تراقب صفحة النهر وعيناها تلتمعان بالدموع، وبعد لحظات استدارت نحوه تسأله كيف يمكن أن يحيوا بعيدًا عن النهر الذي تجري مياهه في عروقهم وتحمل

ملامحهم لون ضفافه، فلم يتمالك (سنحوت) دهشته من كل ذلك الحنين الذي تحمله (ماني) للنهر بعد ما تعرضت له في الأيام الماضية، لقد أوشك على كراهيته تمامًا حين كادت هي أن تضيع منه، لكن كان اندهاشه الأكبر من تلك الابتسامة التي علت وجهها أخيرًا وهي تؤكد له أنه واهم تمامًا، وراهنته على أنه بمجرد أن يبتعد بناظريه عن النيل حتى يشتاقه على الفور!.. وهمست له: "ألا تذكر!.."

***

نسيم الصباح الندي هب ليداعب وجنتها وهي جالسة بحديقة المنزل، كان بصرها يمتد تارة نحو الآفاق الخضراء وتارة أخرى تعود به للقماش الكتاني الذي تطرزه في مهارة، وتارة ثالثة تجول به في أنحاء الحديقة الصغيرة التي احتلت الجانب الخلفي لمنزلهم. كان بسيطًا وإن ظهرت عليه بعض مظاهر اليسر، له شرفة تحيط به وتطل على الحديقة بسلم صغير، وعند حدود الحديقة مع الشرفة استقرت طلمبة الماء المحاطة بسور حجري صغير، ويقابلها حجري الرحى ومقعد خشبي قصير من خلفهما.

أما هي، فقد جلست على ذلك المقعد الخشبي الكبير في ركن الحديقة، تتابع عملها بابتسامة وديعة وقد تشربت وجنتاها بحمرة الشمس

الدافئة، وبدت ملائكية جدًا في ثوبها الفضفاض وشعرها المرسل في ضفيرة غجرية.

فجأة ارتفع صوت أمها طالبة منها أن تحضر لها بعض الماء، وحين اتجهت إلى طلمبة الماء دخل (سنحوت) من باب الحديقة الخلفي ووقف قليلًا يتأملها دون حراك أو همس حتى استدارت لتتفاجأ به. حاولت أن تخفي ربكتها في سؤالها عن سبب تركه لوالدها في حانوت تجارتهما وحده، ولأنه لم يجبها وبقي يتطلع نحوها في حنو اكتفت هي بصمتها الخجول أيضًا. جاءت الأم بعد لحظة بحثًا عن الماء، لكن ابتسامتها الحنونة علت وجهها وهي تتطلع نحوهما وتجيب تحية (سنحوت) التي بادرها بها، بينما أسرعت (ماني) إليها بالماء وهي تحاول الفرار بحجة إعداد بعض الشراب البارد الذي يفضله (سنحوت)، إلا أنه جذبها في رفق لتبقى معه في الحديقة مانعًا إياها أن تتبع أمها إلى الداخل.

"أنا لا أريد شيئًا سوى الحديث معكِ والنظر إليكِ.." هكذا همس لها وهو يمد يده بين طيات ثيابه ليخرج كيسًا من القطيفة المخملية يحوي عقدًا من الجعران ويعطيه لها فقط كي يلمح تلك الفرحة الطفولية التي كست ملامحها وهي تخرج العقد وتعلقه في رقبتها في سعادة.

مرت لحظات تخللتها سعادتها، وسعادته لسعادتها، ثم تساءل لو كانت تعلم ماذا قال الشاعر في حبيبته، رغم أنه يعلم جيدًا أنها وإن علمت فلن تخبره وستتركه يهمس لها بقول الشاعر بينما تعلو وجنتها حمرة وردية تزيد محياها حسنًا:

"ضياؤها ساطع ووجهها منير..

جميلة العينين حين تنظر..

حلوة الشفتين حين تتحدث..

طويلة العنق وشعرها أسود يلمع..

حينما أراها آتية يبتهج قلبي في مكانه كالعصفور.."[1]

هربت من أمامه، فتبعها وتابعها والكلمات تخرج من بين شفتيها تقطر خجلًا ورقة وهي تسأله عن ردة فعل والدها إن علم أنه جاء إليها ليعطيها عقد الجعران الآن وهو في استطاعته أن يمنحها إياه في موعد الغداء!..

---

(١) من نصوص الغزل. (الخروج من التابوت) د.مصطفي محمود.

obeikan.com

"ومن قال إني كنت أستطيع صبرًا؟!.. ثم ماذا في جلوسي معكِ وحديثي إليكِ!!.. ألست عروسي التي ستُزف إليَّ بعد انتهاء فصل أخيت؟![1].." قالها في نفس اللحظة التي عادت فيها الأم حاملةً شراب اللوز البارد، فأخفت (ماني) وجهها داخل الكأس مبتسمة لإمارت الغيظ التي علت وجه (سنحوت) وهو يشكر أمها. وبينما يتناولون الشراب دخل من باب الحديقة الخلفي رجل أصلع الرأس، يرتدي ثوبًا فضفاضًا شاحب اللون، عليه وشاح من الجلد الداكن ويبدو في العقد الخامس من عمره.

"أهلًا بك سيدي الكاهن.. لقد باركت منزلنا المتواضع.." هكذا قالت الأم بينما أشاحت (ماني) وجهها عنه في ضيق وأجاب (سنحوت) تحيته على مضض، ومع ذلك وجه الكاهن حديثه إلى (ماني) وسألها عن حالها، فأجابته في جفاء أنها بخير، وحين سألها مرة أخرى عن سبب عدم حضورها بانتظام إلى المعبد، أسرعت الأم تجيب عنها متعللة أنها تساعدها كثيرًا بعد تقدمها في السن وليس لديها وقت كافٍ، لكن الكاهن أوقف الكلمات في حلقها وهو يؤكد أن الحضور إلى المعبد ضرورة ليحفظها (آمون) من الشرور، وأن هذا ما تفعله كل فتيات

---

(١) (أخيت): الاسم الفرعوني لفصل الفيضان

البلدة. أمّنت الأم على رأيه بينما تحدثت (ماني) لأول مرة لتقول إنها ليست كباقي فتيات البلدة، وعند تلك العبارة جاء دور الكاهن ليؤمّن على قولها هامسًا لنفسه "بالفعل.. لستِ كذلك أبدًا.."

تدخل (سنحوت) هنا في حزم ليخبر الكاهن عن قرب زواجهما، وطلب مباركته كأنما يضع نفسه حائلًا في طريق نظرات الكاهن غير المريحة أبدًا إلى (ماني)، وقبض على يدها في كفه وهو يجيب تساؤل

الكاهن عن موعد الزفاف بأنه سيكون بعد أعياد الفيضان لانتظارهم بعض البضائع من الشمال، لكن لم ينتبه أحدهم إلى تلك الابتسامة القاتمة التي تراقصت على وجه الكاهن وهو يتمتم: "إذن إلى ما بعد أعياد (حابي)!.." وخرج بعدها كما جاء وهو يومئ لوالد (ماني) الذي أتى في تلك اللحظة محييًا، وقال وهو ينسل مبتعدًا: "باركّكم الإله جميعًا.."

لاحظ الأب عبوس وجه (ماني) وتوتر (سنحوت)، وحين تساءل عن السبب لم تكتفِ الأم بإجابة ابنتهما "لاشيء" وأخبرته أنها كالعادة أساءت أدبها تمامًا كما تفعل كل مرة ترى فيها الكاهن أو يتطرق الحديث إلى الأمور الدينية، إما أن تجادل جدالًا عقيمًا لا تفهمه أو تصمت بشكل يفتقر للّياقة!..

حاول الأب أن يهدئ من توتر الأجواء فمازح (سنحوت) عن عدم علمه أنه سيسبقه إلى البيت وجاوبه (سنحوت) بمزاح مماثل متسائلًا هل حقًا لا يعلم. لم يفلح المزاح فيما هدف إليه الأب، فاقترب من ابنته وأسرّ لها ببضع كلمات قصد أن تستمع أمها إليها، أخبرها أنها ربما تشعر بالضيق من التعامل مع الكاهن لكن ما زال عليها احترامه أكثر من ذلك، بل إن هناك من لا يؤمن من الأساس بعقيدة (آمون) لكن ذلك لا يمس سلوكه مع من حوله، وأنهى كلماته قائلًا: "لن يتدخل أحد في معتقداتك الخاصة يا ابنتي فهي من حقك وحدك.. لكن المعاملة الطيبة حق الناس عليكِ.." ترددت (ماني) في قول شيء بعد ما قاله أبوها لكنها اكتفت في النهاية بأن قالت: "حسنًا يا أبي.." فغادر أباها الحديقة مع أمها وهو يؤكد عليهما عدم الإطالة في الحديث كي لا يتضورا جوعًا في انتظارهما هي و(سنحوت).

اتجهت في صمت للجلوس مع (سنحوت) حيث كانا يجلسان منذ قليل، وكأنما كانت تنتظر سؤاله لها عما إذا كانت بخير أم لا حتى تبكي فجأة متمسكة بيديه، ثم قالت بعد لحظة وهو يحاول أن يهدئها: "أحس بانقباض من ذلك الكاهن.. لا أرتاح له ويصيبني الضيق لمرآه.. لكني لا أعرف ما الذي حدث لي اليوم!.. أحسست بالضعف المفاجئ ولا أدري.. لم؟!.."

ربت على رأسها كطفلة هامسًا لها ألا تخشى شيئًا وهو إلى جوارها، لكنه حين بدأت تهدأ لم يتمالك نفسه وانفعل قائلًا إنه هو أيضًا لا يحب ذلك الكاهن أو حتى يرتاح إليه، لا تعجبه قسوته التي يفرضها على الناس ولا نفوذه ولا سطوته، ولا تعجبه بأي حال تلك النظرات التي وجهها لها اليوم في وقاحة!.. "أخبريني يا (ماني) ما الذي كنتِ تريدين قوله لأبيكِ وتراجعتِ؟.. تكلمي.." قالها لها في خوف حقيقي عليها، فجاء دورها لكي تطمئنه هذه المرة أنها فقط كانت ستخبر أباها أن سبب ضيقها لا علاقة له باحترام رجل دين من عدمه، هي فقط لا تحب ذلك الكاهن ولا تدري لماذا، ربما لأنها تكره وضع الكهنة في مصاف الآلهة!..

حديثها هذا أقلق (سنحوت) أكثر وهو يفكر في نظرات الكاهن لها منذ قليل، لكنه لم يستطع التمادي حتى ولو في ذهنه مع ذلك القلق البادي على قسمات وجهها، لذلك قرر في انفعال أنه لن يسمح لأحد أن يمسها بسوء حتى ولو كان كاهن (آمون)، فقالت في شرود بلهجة لم تقنعها هي نفسها: "هذا إن كان يريد بي السوء في الأساس.." ربت على يدها وهمس: "لقد حباني الإله إياكِ فأصبحتِ قِبلة عمري وحياتي، ومنذ أن وقعت عيناي عليكِ وأنتِ بعد صبية صغيرة عرفت أنك قدري ورفيقة عمري، لذا سأحفظكِ بحياتي وأحميكِ بأي ثمن."

Open Kan.com

سألته في تردد واندهاش عما إذا كان ذلك الإله الذي يمنحهم الحياة هو نفسه من يطلق أيدي هؤلاء الكهنة فيهم، فابتسم هو وقال إنه يعلم جيدًا أنها لا تحب كهنة (آمون) ولكنهم في النهاية رجال الرب الموكلين منه برعايتهم حتى لو أتوا ببعض الأفعال غير المفهومة. نظرت له في غير اقتناع ثم سألته بعد لحظة عما إذا كان قد حضر أعياد (أخيت) في (أبيدوس) من قبل، وأجابها أنه فعل مرة في طفولته مع والديه قبل وفاتهما، فأخبرته أنها حضرتها ذات مرة في طفولتها أيضًا، وبالطبع كانت أكثر المرات التي رأت فيها كل هذا العدد من كهنة (آمون)، وأيضًا كانت أكثر مناسبة دينية شعرت فيها بالنفور والتقزز من تقبيل الناس لأيدي الكهنة في ذل مُهين كما لو كانوا عبيدًا لهم وليس لـ (آمون)!..

"ربما (رع) خلقنا نحن و(ست) خلق الكهنة!.." قالها (سنحوت) ضاحكًا فضحكت هي الأخرى وسألته مازحة في استنكار هل يخلقهم (رع) ثم يجعل كهنة الشر يتحكمون فيهم ليقعوا هم في حيرة بين إرضاء الخير في تعاليم (آمون) وبين إرضاء الشر في كهنته، فيغضب عليهم (ست) لو أحسنوا ويغضب عليهم (آمون) لو أساءوا، فربت على كتفها وهو يجيبها بجدية أنه من غير المعقول بالطبع، وليس بالضرورة أن يكون كل كهنة المعبد على شاكلة كاهن بلدتهم هذا، هم في النهاية بشر مختلفون فيما بينهم، منهم المحبوب ومنهم مثل هذا!..

"لكنهم يعاملوننا كما لو كانوا هم الآلهة يا (سنحوت)!.." قالتها في غيظ فضحك مرة أخرى وهو يخبرها أنهم ممثلو الإله في الأرض ويجب احترامهم بأي حال، لكنه تطلع إليها لحظة ثم قال إنه مع ذلك ليس من حقه التعدي على ما ليس له لمجرد أنه كاهن (آمون)، ليس من حقه أن يفعل محتميًا بسطوة ديانته أبدًا، واعترف أمامها في تلك اللحظة أنه يخجل من نفسه الآن لأنه لم يكن يهتم كثيرًا ببعض الأفعال المنفرة لذلك الكاهن طالما أنها هي وأسرتها بخير. صمتت محترمةً لحظة صراحته ولم تندهش حين أكد عليها في قوة: "(ماني).. لا تخشي شيئًا أبدًا وأنا معكِ.." لكنها مع ذلك كانت تخاف.. عليه!..

***

اتجه (سنحوت) في الصباح الباكر إلى منزل (ماني) ودلف من باب الحديقة كعادته ورآها هناك... "طالما كانت زهرة رقيقة متفتحة على الدوام!.." هكذا حدث نفسه حين رآها هناك تقوم بتنظيف الشرفة، ابتسم وابتسمت تاركة ما بيديها وهي تبادره بالصباح السعيد، وقبل أن تنفلت كل الأحرف من بين شفتيها أكد لها أنه بكل تأكيد صباح سعيد ذلك الذي يبدأ ببسمتها التي هي كل أمله!.. دعته إلى داخل المنزل وهي تطلب منه أن يكف عن عبثه وألا ينسى وجود والديها، ونادت عليهما حيث كان على (سنحوت) أن يوصلهما إلى الشاطئ الآخر لشراء بعض

الاحتياجات. "أتريدين الحق، أنتِ تنسيني العالم بأسره.." همس بها (سنحوت) قبل أن يرتفع صوت الأب يحييه من الداخل ويقول إنهما سيوافيانه فورًا، بينما لكزته هي قائلة في خبث "بالطبع لا تريد استعجالهما.." أجابها في جدية بأنه لم يستطع النوم جيدًا الليلة الماضية، ولما لم تفهم ما علاقة ذلك بذاك تظاهر بالاندهاش قائلًا: "أنتِ السبب!.."

"أنا؟!"

"بالتأكيد، لقد سهرت طوال الليل أتطلع من نافذتي لذلك البدر ودار بيننا حوار طويل.."

"(سنحوت)!!... حوار بينك وبين البدر؟!.."

"بل قولي جدال.. هو مُصر على أنه أجمل.. ولكني اعترضت بشدة واتهمته بالغرور أيضًا.."

"لم أعد أفهم شيئًا!.. أجمل ممن؟!.."

"أتصدقين أنه يزعم أنه أجمل من حبيبتي؟!.. واهم بالطبع.. فلم يولد بعد بدر يضاهي جمالها.."

"وهل أقنعته بذلك؟!.."

"لم أستطع.. أنقذه مني بزوغ الفجر.."

openkan.com

هبط والداها إلى الحديقة في تلك اللحظة ليعلنا استعدادهما للرحيل وتبعهما (سنحوت) في أسف لأنه سيغادرها، أما هي فكانت ابتسامات الخجل والسعادة تقطر من شفتيها حقًا لكنها لم تكن ترغب في البقاء وحيدة طوال النهار!...

"لم يعد باقيًا على انتهاء فصل (أخيت) سوي شهر واحد، ولابد من شراء مستلزمات العيد وكذلك مستلزمات عرسكِ حبيبتي.." قالتها أمها في ابتسامة حانية، بينما ربت والدها على كتفها وهو يخرج ومن خلفه أمها، وقال لها (سنحوت) أنه سيوصلهما إلى المرسى وبعدها سيكون في الحانوت إن احتاجت له في شيء، وابتسم حين قالت له أن يحرص على نفسه وقال: "وكذلك أنتِ.."

بعد خروجهم دارت (ماني) حول نفسها لاهية كطفلة وهي تفكر فيما ستفعله وحدها طوال النهار، قررت أن تعد الطعام أولًا ثم ترى، لذا صعدت إلى الشرفة وتناولت دلو الماء واستدارت عائدة نحو الحديقة لتملأه من طلمبة الماء لكن.. حين خرجت رأت كاهن البلدة يتسلل من باب الحديقة وأخذ يدير عينيه الحادتين فيما حوله في سرعة، فاختفت منه خلف باب الشرفة وهي تسمعه يحادث نفسه: "كنت على صواب حين انتظرت رحيلهم.. فالمرء لا تتوافر له مثل تلك الفرصة كل

يوم!.." واتجه نحو سُلّم الشرفة ليدخل منها إلى المنزل لكنه فوجئ بها تخرج له لتمنعه عن المتابعة!..

رغم المفاجأة إلا أنه ظل يتطلع إليها بنظرات وقحة وهو لا يزال يدنو منها أكثر، مما جعلها تصده بيديها لتزيحه عن طريقها وهي تهبط إلى الحديقة، بينما سألها هو عن أحوالها في برود مستفز لا يتناسب مع ما يظهر من إثارة على ملامحه، فأجابته ساخرة أنها لا تعتقد أنه جاء في مثل تلك الساعة المبكرة متلصصًا من الباب الخلفي ليسأل عن أحوالها، ولدهشتها لم ينفِ ذلك بل قال لها إن اعتقادها ليس بالخاطئ!..

"ليس لديَّ أدنى شك في ذكائكِ.. ذكاء خطير مع.. جمال أخطر!.." قالها هامسًا وهو يقترب منها محاولًا لمس يدها، لكنها ابتعدت عنه في حدة وصرخت في وجهه تسأله ماذا يريد منها، لم تتوقع أن يجذبها من ذراعها بمثل ذلك العنف لتخفض صوتها وهو يحذرها من غباء أن تعلن كرهها له، فعادت تصرخ: "ومادمت تعلم بكرهي لك فما حاجتك بي؟!.."

"قلت لكِ اخفضي صوتكِ، فلم آتِ هنا متلصصًا كما تقولين إلا اعتمادًا على ذكائك.. ومن الذكاء أن تدركي أن ما تفعلينه الآن ليس في مصلحتكِ أو في مصلحة أهلك أو ذلك الـ(سنحوت).."

ومد يده الأخرى ليداعب وجنتها متابعًا: "ومن الذكاء أيضًا أن تعلمي أن توصلنا أنا وأنتِ إلى اتفاق سيجعل الجميع بعدها ينعم بالسعادة التي ينشدها.. أنا وأنتِ و.. هم.. أتفهمين؟!.."

"ماذا تظن بي أو تظن نفسك.. مالك الكون؟!.. إنك لن تستطيع شيئًا.. سأشكوك للحاكم.." ضحكته الساخرة أرعبتها بحق وهو ينظر لها في تحدٍ شره طالبًا منها أن تحاول ذلك، ثم سألها لو أن لها أخًا يدعى (محب) ويعمل حارسًا في قصر الحاكم أم لا، ودون أن ينتظر إجابتها سألها مرة أخرى في مكر لو كانت تعلم عقوبة الحارس الذي يضبط مثلًا وهو يغازل إحدى جواري القصر، أويضبط سارقًا أو متقاعسًا عن واجبه!..

كادت أن تصرخ من هول ما يزرع في ذهنها من أفكار سوداء، لكنه تحول بحديثه إلى ذكر البضائع التي ينتظرها والدها من الشمال، ودعى الآلهة - زيفًا - أن تحفظ القافلة من السارقين وقاطعي الطريق!.. رجته أن يكف عما يقول لكنه لم يفعل وتابع مدعيًا أنه يقدم لها نصيحة أخيرة، قال إن على (سنحوت) توخي الحذر حيث أنه يحيا وحيدًا في منطقة نائية، كي لا يُؤذى أو يُعتدى عليه أو..... "قلت لك اصمت وكفاك.." قالتها وهي تبكي منهارة تمامًا، في حين اقترب الكاهن منها وهمس: "حسنًا.. أعتقد أنك أصبحتِ تفهمين مقصدي جيدًا.. أنتِ في

يدكِ شقاء الجميع أو سعادتهم.. وأنا هناك أنتظر ما تقررين!.." وخرج ليزداد بكاؤها أكثر فأكثر، ومع كل دمعة ذرفتها ارتفع رعبها وخوفها على ..على من ؟!.. هو لم يترك لها إلا الخوف على كل من تحب، فماذا تفعل الآن ؟!..

تكومت حول نفسها فوق مقعد الحديقة ودفنت رأسها بين ذراعيها غير قادرة حتى على البكاء أكثر مما فعلت، كانت تشعر بعجز تام شُلت معه حتى دموعها!..

***

"ربما هي في الحديقة، سأذهب لأراها.." ميزت صوت (سنحوت) وهو يقولها هابطًا نحو الحديقة بالفعل لتكتشف أنها ظلت على جلستها حتى آخر النهار، فسارعت بمسح وجهها في نفس اللحظة التي اقترب منها (سنحوت) مبتسمًا وسألها: "(ماني).. أنت هنا ونحن نبحث عنك بالداخل!.." لكن ابتسامته تبخرت حين لمح آثار البكاء على وجنتيها، فأدارت عنه عينيها بينما أمسك هو يدها راكعًا أمامها يسألها عما أصابها في قلق. ظلت صامتة للحظات، ماذا تخبره؟!.. بل ماذا يمكنه أن يفعل لو أخبرته؟!.. شعرت بألم قلبه وهو بادي القلق يكرر عليها سؤاله في إصرار، فأجابته أخيرًا عن حضور الكاهن اليوم صباحًا بعد انصرافهم وبتهديده لها، ثم صمتت!..

"لا أفهم، بماذا يهددك؟!.." حين سألها (سنحوت) كان ذهنه خاليًا تمامًا مما يمكن أن يفكر به ذلك الكاهن لأنه لم يستوعب بعد حجم وقاحته، لذلك ثار غاضبًا حين قالت له (ماني) إنه ساومها على سلامة أهلها وسلامته هو في مقابل رضوخها التام لرغباته، وقال في هدوء غاضب وحروف مشتعلة: "لن يحدث هذا أبدًا ولو حِلت دونه بحياتي!.." قالها وقبض على يديها ولم يتفوه بحرف بعدها.

كانت تعلم أن الأمر بالنسبة إليه أكبر وأعمق منها وحدها، فهي وأسرتها كل ما تبقى له في الحياة بعد رحيل أبويه وهو غلام لم يشتد عوده بعد، وهو يحمل جميل أبويها لتربيته حتى أضحى رجلًا، لذلك كان صد الظلم عنهم واجبًا مقدسًا بالنسبة له!..

بكت أكثر وهي تلمح كل ذلك الغضب في نظراته رغم حنو لمساته لها وهو يحاول طمأنتها، بينما علا صوت أمها من الداخل تدعوها لرؤية ما ابتاعته لها فهمس (سنحوت) في حنان قوي وهو يقبل جبينها: "كفي عن البكاء الآن ولا تخشي شيئًا أبدًا!.."

***

"نعم أذكر يا (ماني)!.." قالها (سنحوت) هناك على المرسى حيث لا يزال يتحدث هو و(ماني) بينما يستكمل الباقون تناول طعامهم، قال لها كيف أنه لا يمكن له أن يكره ذلك النهر الذي رافق حبها في قلبه دائمًا،

قال إنه يعلم الآن أنه سيشتاق إليه وإلى طميَّه يحتضن خطواتهما، إلى لياليه الشبيهة بحلكة عينيها، سيشتهي طلة الفجر على ضفتيه حيث يشعر ساعتها بعودتهما طفلين صغيرين يلهوان حافيين على شاطئيه، صيفًا تداعب قطرات الندى أناملهما حين يمسا زروعه الخضراء، وشتاءً تغسل الأمطار روحيهما قبل الأجساد، ذلك النهر هو عهد البراءة فكيف لا يعشقه؟!.. إن ما حدث لم يكن بسبب (حابي) حقًا، إنه الحقد الأسود بداخل ذلك الإنسان البغيض الذي يُسخر أي شيء لخدمة أغراضه!..

ابتسمت ابتسامة قلقة مشوبة بشعورها بالذنب نحوهم، وأفضت إليه بما تشعر وأخبرته أنهم على حق في النهاية، هم في حاجة حقًا إلى مكان جديد وحياة جديدة وأناس آخرين علهم يجدون بينهم عوضاً عما لاقوه، فأخبرها أنها لا يجب أن تشعر بالذنب، فكل ما فعله وما سيفعله هو والجميع هو حقها عليهم، وتطلع إلى عينيها مباشرة وسألها: "أتفهمين؟!.."

كانت تفهم ما قاله وتشعر به تمامًا لكنها لن تنسى طوال عمرها ما فعلوه جميعًا لأجلها، ورغمًا عنها شردت منه إلى هناك، يوم عيد (حابي) الذي كان يوم فرحة وبهجة على الجميع إلاها هي وعائلتها، لم يكن كذلك أبدًا!..

***

كان أهالي البلدة المجتمعون يترقبون ذلك اليوم من كل عام وفي نفس الوقت يخشونه، حيث يجتمعون هناك في ساحة معبد (آمون) للاحتفال بأعياد الفيضان ولاختيار حسناء البلدة. ظلال المساء كانت تضفي جوًا من السكون رغم ازدحام المكان، والنيل يكاد يحتجب في الأفق خلف الأشجار الوارفة المتوجة بأعشاش الطيور، وكأنما تشاركهم الطبيعة تضارب ما يحملون من مشاعر!..

وقفت (ماني) مع (سنحوت) ووالديها وسط معارفهم وجيرانهم يتبادلون الأحاديث والضحكات وإن بدا عليهما انفصالهما عما حولهما تمامًا، وظلا يرقبان الكاهن الذي وقف عند سلم المعبد يتطلع للجميع بنظراته الحادة وبين الحين والآخر يتقدم منه أحد الحاضرين ليقبل يده أو ليمنحه الكاهن إحدى فطائر العيد ليبتعد بعدها من أمامه منحنيًا في رهبة أكثر منه إجلالًا أو احترامًا!..

انسحب (سنحوت) لمصافحة أحد أصدقائه فلم يلحظ نظرات الكاهن التي حولها نحو (ماني) ولم تشأ هي أن توتره أكثر بتنبيهه، لكن بعد لحظات اقترب منها الكاهن في بطء وعلى شفتيه ابتسامة ماكرة وهو يمنحها إحدى الفطائر التي في يده ويسألها في همس مقيت عما إذا كانت لا تزال على عنادها، رمقته بنظرة حقد ونحت يده الممدودة عنها

في عنف نبه (سنحوت) إلى ما يجري، وفي لحظة اتجه نحوهما والكاهن يقول لها: "لاحظي أنكِ لم تفصحي عن رأيكِ بعد!"

فاجأه (سنحوت) بسؤاله: "رأيها فيمَ أيها الكاهن؟!.." فتحول الكاهن إليه مادًا له يده بإحدى الفطائر دون أن يظهر عليه أثر المفاجأة وهو يخبره أنه كان يسألها عن رأيها في فطائر هذا العام فالنساء أمهر منهم في الحكم على مثل تلك الأمور، تجاهل (سنحوت) يده الممدودة وهو يقبض على كف (ماني) مؤكدًا في صرامة أنها لا تعجبها ولا تعجبه هو أيضًا، كما أنها لن تعجب أحدًا، وحين توجه إليها الكاهن مستفسرًا عما إذا كان هذا رأيها هي الأخرى أجابته بعد لحظة بنعم!..

"حسنًا.. تأكدا أني سوف أجازي ذلك الخباز على فعلته تلك ولن أغفر له أبدًا.." قالها الكاهن وهو يغمرهما بنظرات نارية قبل أن يلقي الفطائر أرضًا ويصعد إلى الممر المؤدي إلى مدخل المعبد في غضب، مما جعلها تشعر بالخوف بينما مال (سنحوت) نحوها هامسًا - وهو يتابع حديث الكاهن مع أحد الحراس - بأنه من الأفضل أن يعيدها إلى المنزل الآن، لكن قبل أن تجيبه دق الكاهن بعصاه دقات متتالية لجذب الانتباه هاتفًا: "انتبهـوا.."

صمت الجميع متطلعين إليه في سكون وترقب، بينما هبط هو بينهم قائلًا في خشوع مصطنع: "أبنائي رعايا (آمون).. بعد أسابيع قليلة

سوف نحتفل بأعياد (حابى) بعد أن منَّ علينا بفيضه الوفير.. ولقد أوشك فصل (أخيت) على الانتهاء بالفعل وبعد تلك الأسابيع وفي يوم العيد سيكون كبير كهنة (آمون) في (أبيدوس) قد اختار عروس (حابي) لهذا العام من بين حسناوات القطر المصري.. المجد لك أيها النهر العظيم.. يا من تحمل الخير لـ (كيمي) المجد لك.. يا محيي الوادي.. المجد لك يا (حابي)..."

صمت للحظات وهو يدير بصره بين الحضور ليتأكد من فرض سطوته التامة على الجميع، وثبت بصره على (ماني) سعيدًا بترقيها وقلقها وبإمارات الغضب في ملامح (سنحوت)، ثم قال في حزم: "اليوم نجتمع لاختيار حسناء بلدتنا الحبيبة.. والتي قد يسعدنا القدر بأن يتقبلها الإله (حابي) دونًا عن فتيات الوادي الأخريات عروسًا إلى جواره في يوم العيد كرمًا منه علينا.. سوف تتقدم حسناؤنا المختارة بين عشرات الفتيات من طول البلاد ليحكم فيهن كبير كهنة (آمون) بما يأمر (حابي).. وسوف يصطحب الحراس جميلتنا المختارة إلى قصر الحاكم ضيفة معززة حتى موعد رحيلها إلى (أبيدوس).."[1]

---

(١) طقوس خيالية.

تجاهله (سنحوت) و(ماني) وتحركا قاصدين الرحيل عن المعبد فاستدار نحوهما قاطعًا حديثه وصاح: "انتظرا.." التفتا إليه جزعين، بينما نقل الجميع أبصارهم فيما بينهما وبينه وهو يكمل حديثه في قوة : "أعلن أنا كاهن (آمون – رع) ..أن فتاتنا المختارة هي (ماني) ابنة تاجر البلدة.."

شهقت متشبثة بـ (سنحوت) بينما ذهل أبوها وصرخت أمها باسمها، وفجأة عمّ الوجوم على الحضور وكل منهم يرنو إليها في أسف، بينما أشار الكاهن إلى الحارسين ليصطحباها إلى القصر. حاول (سنحوت) أن يحول بينها وبين الحارسين فنهراه برمحيهما، بينما وقف والديها عاجزين حتى عن الحديث، وتحركت هي لتحول بجسدها بين الرُمحين وبينه، ورجته باكية ألا يعرض نفسه للأذى، لكنه لم يبتعد وظل متشبثًا بها وهو يصرخ أنه لن يسمح بضياعها أبدًا بتلك الصورة!.. "إنني على استعداد للذهاب معكما لكن لا تؤذياه.. لا تؤذيا أحد أرجوكما.." قالتها (ماني) وهي تستدير لتلقي بصورة (سنحوت) ووالديها وكل أهل البلدة من خلفها، فلا يتبقى أمام ناظريها إلا أعين الحارسين ومن ورائهما عينا الكاهن الشامتة. استمعت إلى صرخات (سنحوت) الغاضبة وبكاء أمها، حتى حسرة أبيها شعرت بها لكنها لم تجب، أدركت أنها هكذا تحميه وتحميهم جميعًا، فلو احتمت بهم لضاع الجميع!..

"هذا اختيار ظالم.. ظالم.. وأنت تعلم ذلك.. تعلمه جيدًا أيها الكاهن.." قالها (سنحوت) في جرأة أكبر فاستدارت نحوه ثانيةً ترجوه أن يصمت، بينما صاح الكاهن في غضب متسائلًا كيف يجرؤ على وصف إرادة الآلهة بالظلم، فتمسكت هي بيد (سنحوت) وتطلعت إلى عينيه مباشرة توصيه بأبويها وبنفسه أمام نظراته التي تحولت إلى الذهول، واتجهت إلى أمها تضمها في قوة، ثم إلى أبيها تقبل يده، وأخيرًا تعود للتطلع نحو (سنحوت) وهي تبتعد مع الحارسين!.

مرت لحظات صمت ثقيلة جثمت على أنفاس الجميع، غادر معظمهم ساحة المعبد بين حزين على (ماني) وحامد للآلهة على حفظها لبناته من مثل مصيرها، بينما اختفى الكاهن بداخل معبده حاملًا نظراته المتشفية معه. حاول والدها التماسك وهو يربت على كتف أمها الباكية متطلعًا إلى (سنحوت) الذي لا يزال في حالة صدمة، فحاول أن يهدئ من روعهما قليلًا وهو يذكرهما أنها إرادة الآلهة التي لا حيلة لأحد فيها، ثم إنه ليس من المؤكد أن تكون هي هي عروس (حابي) بينما بكت أمها وهي تقول إنه هناك احتمال ولو ضئيل في أنها ستكون!..

"هذه ليست إرادة الآلهة.." قالها (سنحوت) في شبه همهمة لم ينتبه لها الأب وهو يوصي زوجته بالدعاء إلى الآلهة ألا يتم اختيار ابنتهما عروسًا لـ(حابي) هذا العام، وبعدها سيتمم زواجها قبل العام الجديد وبذلك لن تصلح للترشح مرة أخرى،

فلن تكون من عذروات الوادي![1]..

كرر (سنحوت): "هذه ليست إرادة الآلهة.. أتفهمان؟!.." نهره الأب ليصمت ففعل أمام نظرات الأم الحزينة التي أخذت تتساءل لم ابنتها على وجه الخصوص، وبقيت تتحدث في صوت مذهول عن وقت ولادتها وكيف أنهما أسمياها (ماني)[2] لأن وجهها كان في صفاء العسل، وأخذت تلعن الحظ العثر فلم تكن تعلم أن ذلك الجمال الذي منحته لها الطبيعة سيكون وبالًا عليهم وسيحرمهم منها إلى الأبد!..

"لا تقولي هذا يا خالتي.. فلن أتركها تضيع مني أو منكما أبدًا.." قالها (سنحوت) وهو يقبل يد الأم، فتطلعت نحوه في أمل تسأله هل حقًا ما يقول فأكد لها ما يعني، بينما حذره الأب أن يتهور غير أنه لم يستمع وأخذ يكرر أنه لن يستسلم لهذا الحكم صاغرًا أبدًا، وتطلع نحو الكاهن الذي خرج للتبختر مرة أخرى فوق ممر المعبد متطلعًا إلى الساحة التي خلت إلا منهم تقريبًا. نظر (سنحوت) في عينيه مباشرة وقال في تحدٍ: "خذها مني كلمة.. لن تصل لأهدافك ما حييت أنا أيها الكاهن.. مادام بصدري نفس يتردد لن يحدث هذا أبداً.."

---

(١) طقوس خيالية (٢) (ماني) تعني عسل النحل.

أبيدوس.. سيناء!

obeikan.com

obeikan.com

في غرفتها بقصر الحاكم جلست (ماني) قرب نافذتها مرتدية ثوبًا حريريًا فاخرًا وتعطرت بطيب فاخر، ورغم أن النافذة تطل على أروع مشاهد النيل وقت الغروب ويتسلل إليها من بين زروعاته الندية أعذب نسيم في الوجود، لكن ما من هذا كله بدا أنه يؤثر فيها أو حتى تنتبه إليه. كانت هذه هي محطتها الأخيرة قبل سفرها إلى (أبيدوس) وقبل أن تساق لقدر مبهم لم يكن يشغل بالها كثيرًا في تلك اللحظة، فقد كان همها الأكبر الذي يؤرقها حقًا هو خوفها على كل أحبائها، خوفها الذي جعلها تستسلم للمجهول فداءً لهم جميعًا!..

لم تدرِ كم بقت على جلستها تلك ولكنها فزعت فجأة مع دخول إحدى الجاريات عليها حاملة الطعام، لمحت على وجهها إشفاقًا لم تعره انتباهًا وهي تدير وجهها عنها باكية في صمت، فوضعت الجارية الطعام من يديها على طاولة قريبة واقتربت لتربت على كتفها في حنان وهي تطلب منها أن تكف عن البكاء، لكن طلبها هذا جعل (ماني) تنتحب أكثر وهي تتساءل من بين دموعها عما يمكنها أن تفعل سوى البكاء، لقد حاولت أن تحميهم وتخاطر الآن أيضًا لأجلهم، لكن حتى هذا لا يضمن لها سلامتهم من بطشه، فماذا عليها أن تفعل يا ترى أكثر من ذلك؟!..

"يا أيتها الآلهة؟!.. أتقولين الكاهن؟!" هتفت بها الجارية في خفوت متلفتة حولها في رعب بعد أن سألت (ماني) عمن تقصد وأجابتها بأنه كاهن البلدة، طلبت منها أن تخفض صوتها كي لا يسمعها الحرس بالخارج، حاولت أن تقاوم فضولها للحظات لكنها لم تستطع فسألتها مرة أخرى - بعدما هدأت قليلًا - عن كيفية أن يكون الكاهن السبب فيما هي فيه، فنظرت لها (ماني) في شك لاهتمامها بأمرها إلى تلك الدرجة، لكن بعد لحظة وجدت نفسها تتمتم في خفوت: "سأخبرك!.."

***

أسرع (محب) يقطع ممرات القصر في لهفة جزعة وهو لا يصدق ما سمعه توًا من (سنحوت)، أخته الصغرى.. فراشته الحلوة كما كان يحلو له مناداتها.. تكون في هذا الموقف!..

توقف عند بداية الممر الذي تقع غرفتها في نهايته ولمح هناك زميله (رام) القائم على حراسة الغرفة، فاقترب منه متصنعًا الهدوء قدر المستطاع وحياه متسائلًا عن نزيلة الغرفة التي يحرسها، فأخبره (رام) أنها نزيلة الحاكم، وعلى وجه الدقة هي نزيلة كاهن البلدة، ثم تنهد في إشفاق وهو يخبره كيف أنها لا تكف عن البكاء قط!..

بدا التأثر على وجه (محب) وهو يسأله - متظاهرًا باللامبالاة – عما إذا كانت حقًا حسناء البلدة لهذا العام أم لا، فابتسم (رام) وهو يؤكد له

ذلك مادحًا صديقه الذي لا يخفى عليه أمر بين جنبات القصر. "أريد أن أراها يا (رام)!.." تحولت ملامح (محب) إلى الجدية وهو يقولها في حزم مشيرًا نحو الغرفة، فهتف (رام) في فزع وهو يتلفت حوله أن ذلك محال تمامًا، فليس مسموحًا لأحد بالدخول إليها سوى الكاهن، ولا حتى الحاكم وزوجته!..

أمسك (محب) كتفي (رام) ونظر في عينيه مباشرة هامسًا في حزم: "(رام).. اسمعني جيدًا.. إن (ماني) هي شقيقتي الصغرى والوحيدة وبحكم عملي هنا لا أراها كثيرًا.. وقد فوجئت اليوم بموقفها هذا.. هل كثير عليَّ أن أرى شقيقتي لمرة قد تكون الأخيرة؟!.."
صُدم (رام) بقول صديقه هذا فهز رأسه نفيًا وصمت للحظات مفكرًا، تلك اللحظات كادت تقتل المتبقي من صبر (محب)، لكن (رام) فاجأه بقوله إنه سيساعده ليراها ولكن في آخر المساء بعد أن يذهب جميع من في القصر للنوم، فتهلل وجه (محب) أخيرًا وهو يشكره بشدة، لكن (رام) عاد لينبهه أنه عليه الانصراف الآن والعودة في المساء كي لا يلاحظ أحدهم شيئًا، فانسحب من أمامه بالفعل في سرعة وهو يهمس له بأنه على حق. تابعه (رام) صامتًا للحظة ثم تنهد وهو يتمتم متطلعًا نحو الغرفة: "كان الإله في عونك يا صديقي!.."

***

جلست (ماني) صامتة على طرف الفراش بعد أن قصت على الجارية كل شيء وهي تتطلع إلى ملامحها الذاهلة، بينما ارتكنت الثانية إلى حافة النافذة القريبة من الفراش والتفتت نحوها بعد لحظة قائلة: "لقد عانيت كثيرًا خلال الأيام السابقة!.." وتعجبت أكثر حين قالت (ماني) لها: "لا يعنيني كل هذا الآن يا (ددت)..." كان الأهم لديها حقًا ألا يُؤذى أبواها أو أخاها أو (سنحوت)، ولكن حتى تلك الأمنية لا يستطيع أحد أن يضمن لها تحققها!.. تنهدت (ددت) غير مصدقة أو مستوعبة أن يفعل الكاهن كل هذا، ولو لم تسمع من (ماني) قصتها الآن ما تخيلته بالمرة!..

"(ددت).. أتعرفين أخي (محب)؟.. إنه أحد الحراس هنا كما أخبرتكِ.. فهل تعرفينه؟.." سألتها (ماني) في لهفة لم تدم طويلًا بعدما أجابتها (ددت) أنهن هنا لا يعرفن أسماء الحرس لأن الاختلاط بين الجواري والحرس غير مسموح، لكن ربما تكون قد رأته، وشردت لحظة بعد ما قالت وابتسمت فسألتها (ماني) عن سر ابتسامتها، فأخبرتها أنها ذكرتها بواحد من الحرس كانت قد رأته ذات مساء وهي بصحبة زوجة الحاكم في حديقة القصر، وشغلها لدرجة أنها حرصت منذ ذلك اليوم على رؤيته في نفس الموعد من كل مساء ولو من بعيد!..

عادت (ماني) تسألها لو كان في إمكانها مساعدتها في رؤية أخيها، فلقد مرت فترة طويلة لم تره فيها وهي ترغب في أن توصيه على أبويها وعلى (سنحوت) الذي تخشى عليه من تهوره، فكرت (ددت) قليلًا وقالت:"من الممكن أن..."

لكن صوت (رام) قاطعها في تلك اللحظة هاتفًا من الخارج: "سيدي كاهن (آمون).." فانتفضت كلتاهما وتشبثت (ماني) بيد (ددت) ترجوها البقاء، وقبل أن تجيبها دخل الكاهن ببسمة ساخرة سرعان ما انتحرت على شفتيه بعد أن فوجئ بوجود (ددت)، فأمرها في قوة بأن تخرج لتدع له مجالًا ليبارك الابنة (ماني) بدعواته قبل سفرها إلى (أبيدوس)، لكن (ماني) تشبثت بها أكثر فهتف هو:
"هيــا.."
خرجت (ددت) مهرولة بعدما انحنت أمامه ووقفت بالخارج مع (رام) الذي سألها في دهشة عن سبب وقوفها هكذا وعدم انصرافها، واندهش أكثر حين أجابته "لا أريد تركها وحيدة.."

"لا تقترب مني وإلا استدعيت الحرس.." صاحت (ماني) في فزع وجفلت مبتعدة عن الكاهن الذي ضحك في خفوت وتقدم منها في بطء بينما ازدادت هي ابتعادًا، لكنها فجأة اتجهت نحو النافذة وتمسكت بحافتها كأنها تهمّ بالقفز منها وهتفت: "سأجعلهم يستدعون الحاكم.."

في لحظة أصبح على قيد خطوة واحدة منها وجذبها من ذراعها في عنف مذكرًا إياها بأن البلدة كلها لا تأتمر إلا بأمره، من أقل الرعية شأنًا وحتى الحاكم نفسه، فمن الأفضل لها أن تهدأ وتطيعه. تطلعت إليه في رعب دون أن تنطق، ثم صرخت بعد لحظة تسأله ماذا يريد منها بعد أن ساومها على نفسها وها هي تواجه الموت بفضله، فماذا يريد بعد الآن؟!..

"إن موتكِ حتى لن يطفئ نيراني.. لن يكفيني سوى الانتقام من الجميع.. أتسمعين!.." جذبها من ذراعها أكثر وهو يقولها في شراهة وملامحها تنطق بالرعب، وأخذ يتابع عبراتها المنسابة على وجنتيها ثم مد يده ليلملمها مداعبًا بشرتها بيد وبالأخرى يتشمم رائحة ذلك الشال الملقى على كتفيها وهو يخبرها هامسًا أن بعد حياتها هي لن يوجد شيء في هذا الكون ذو قيمة لديه، فهو لم يعشق امرأة كما عشقها، ولم ترفضه امرأة قبل الآن غيرها هي، لذا فهو لن يسمح لأحد بأن ينتزعها منه، وقبل ذلك سينهي حياتها بيديه لو تطلب الأمر لكنه لن يرحم بعدها أحدًا!..

ظلت جامدة لثوانٍ تنظر إليه مشدوهة دون أن تقوى حتى على أن تحول عينيها عنه، وفجأة اختطفت إحدى الأواني النحاسية من فوق صحيفة الطعام وضربته بها فتراجع صارخًا في ألم وهو يسحب شالها

في رد فعل عكسي، بينما اندفعت هي مرة أخرى نحو النافذة وأمسكت بحافتها بقوة شديدة هاتفة في هستيريا بأنها ستلقي بنفسها إن لم يخرج من الغرفة الآن وفورًا!..

تحسس جرحه كاتمًا نزفه بشالها وأشار لها مهدئًا وقال: "حسنًا.. حسنًا.. سأخرج.. لكني سأعود لاحقًا.." وخرج مسرعًا أمام نظرات (رام) و(ددت) الذاهلة، بينما اندفعت الأخيرة نحو غرفتها تسألها عما فعلته بالكاهن، لكنها صرخت في وجهها بأنها تريد أن ترى أخاها بأي ثمن، وأخذت تروح وتجيء بين النافذة والفراش دون أن تفلح (ددت) في تهدئتها، حتى هتفت فجأة وهي تشير نحو حديقة القصر: "(ددت)!.. إنه أخي (محب) ومعه (سنحوت).. انظري!.."
لم تصدق (ددت) عينيها حين أسرعت تنظر من النافذة، إن (محب) هو نفسه ذلك الذي تنتظره كل مساء، لكن لدهشتهما اختفى فجأة تاركًا (سنحوت) وحده في تلك البقعة من حديقة القصر، وما أن رأت (ماني) ذلك التصرف حتى دارت حول نفسها تتساءل في توتر عما يفعل، وأخيرًا ألقت بنفسها فوق الفراش وهي تؤكد في صوت ضعيف أنها لم تعد تحتمل!..

***

اتجه (محب) نحو (رام) وتهامس معه ببضع كلمات عله يسمح له برؤيتها أخيرًا، فوافقه (رام) قائلًا: "حسنًا يا (محب).. لكن اسمع....."

وفي الداخل حاولت (ددت) أن تهدئها وهي تخبرها أنها ستذهب للبحث عن (محب) وتخبره بكل شيء، لكن قبل أن تختتم كلماتها فوجئت كلتاهما باندفاع (محب) إلى داخل الغرفة وملامح الدهشة ترتسم على وجهه عند رؤية (ددت)، ولم يحول عينيه عنها وهو يجذب شقيقته إلى صدره أخيرًا!..

بقي لبرهة يتطلع نحو (ددت) التي تعلقت عيناها به في استكانة، بينما أخذ هو يربت على ظهر (ماني) التي بكت على صدره كثيرًا وأخذت ترجوه أن يخرجها من هنا، مما جعله ينظر نحو (ددت) في شك لاحظته (ماني) فرفعت له عينيها الباكيتين ألا يقلق!..

"اهدئي الآن.. لقد أخبرني (رام) الحارس بما جري مع الكاهن منذ قليل.. ولن أتركِكِ هنا أكثر من ذلك.. سنخرج سالمين بإذن الإله.." قالها (محب) فهتفت (ددت) في قلق بأن ذلك مستحيل تمامًا، لكنه طمأنهما أنه ليس مستحيلًا جدًا لو أحسنوا التصرف، خاصة وأن الحراسة هنا ليست مشددة بالصورة التي يحاولون إظهارها بل يعتمدون غالبًا على التلويح بعقاب الكاهن لكل من تسول له نفسه خرق القوانين، والتفت نحو (ددت) يشكرها على نصحها وعلى وجودها إلى جوار (ماني) في ذلك

الموقف، بينما قالت (ماني) - معتذرة منها – أنها شكت في البداية أنها مدسوسة عليها، لكن حين شعرت بخوفها الصادق عليها اطمأنت لها.

"يبدو أن هذا الوجه الملائكيّ يخفي خلفه روحًا ملائكية بدورها!.." قالها (محب) مبتسمًا رغمًا عنه، فابتسمت (ماني) أخيرًا بينما توردت (ددت) خجلًا وهو يسألها هل يتجاوز إذا طلب مساعدتها، فأجابته أنها رهن ما يطلب!..

"حسنًا إذن.. اسمعاني جيدًا.." وأخبرهما أنه يجب عليهم جميعًا أن يرحلوا عن البلدة وفورًا، وقد تفاهم هو مع والديه و(سنحوت) بهذا الخصوص قبل أن يعود لرؤيتها، فما من شيء سيوقف يد الكاهن الممدودة في طول البلدة وعرضها حتى يطالها، وحين تساءلت (ماني) كيف سيضحي والدها بتجارته، وسيضحون جميعًا باستقرارهم وحياتهم التي يألفونها أخبرها أن حياتها لديهم أثمن من أي شيء قد يخسرونه!..

قالت (ددت) في حزن: "سترحلون إذن؟!.." فنظر لها (محب) ليسألها مباشرة هل توافق إن طلب منها الرحيل معهم، فلاذت (ددت) بالصمت للحظات بينما سألته (ماني) هل يعرفها هو الآخر كما تعرفه هي، فأجابها بأنه لا يعرف منها سوى ذلك الوجه البريء منذ أن رآها يومًا مع زوجة الحاكم، ولم يعرف اسمها إلا منها الآن، ورغم ذلك الموقف

الذي هم فيه إلا أن تلك اللحظات هي أجمل لحظات عمره بلقائها عن قرب أخيرًا..

بدأت (ماني) تهدأ أكثر فسألت أخاها – مداعبة - من أين يعلم أنها تريد الرحيل أو حتى تبادله ما يشعر، فقال ونظره مثبت في عينيّ (ددت) أنه يسألها من أجل ذلك!..

"بل سأذهب معه.. أ.. أقصد معكما لأي مكان.. فلمن سأبقى!.." ابتسم (محب) حين قالتها (ددت) ولم يستطع إخفاء فرحة عينيه وهي تدير عينيها عنه في خجل، لكنه تدارك الموقف وهو يخفض صوته مشيرًا لهما بالإنصات جيدًا. أخبرهما أن (ماني) عليها أن تهبط إلى الحديقة عبر النافذة التي ليست بعيدة عن الأرض، فالخروج في زي إحدى الجواري أو الحرس مثلًا سيكون في منتهى الخطورة لأنه سيلفت النظر إليهم في الحال، بينما سيخرج هو و(ددت) الآن معًا ليتأكد هو من خلو الحديقة إلا من (سنحوت) ولتحضر هي حبلًا لـ(ماني) تستعين به، ثم تترك (ددت) الغرفة كأنها ذاهبة لجناح الجواري لتنام.

فاجأته (ددت) بسؤال عما إذا كان (رام) يعرف كل هذا، وتوترت (ماني) مرة أخرى حين أجاب بأنه لا يعرف بالطبع، فقد كانت تخشى أن يُتهم بالتعاون معهم دون ذنب، لكنه أكد لهما أنه سيرتب الأمر بحيث يظهر أنه خُدع بطريقة ما فلا يكون شريكًا لهم أو ما شابه. أومأت (ددت)

بالموافقة ثم خرجت لبرهة بينما أخذ هو يتابع ما يدور في الحديقة من النافذة، حتى عادت هي مرة أخرى تحمل معها حبلًا سميكًا ناولته لـ (ماني) بينما أشار لها هو بالخروج والاستعداد للرحيل حتى يخبرها بخلو الطريق فتعود وتخبر (ماني)، والتفت إلى شقيقته بابتسامة مشجعة وأخبرها أنه سيخرج الآن كي لا يتأخر على (سنحوت).

خرجت (ددت) وتبعها (محب) بعد لحظات، وحين نهضت (ماني) تحاول تثبيت الحبل في حافة النافذة رأت أخاها من خلالها يخرج إلى (سنحوت) في الحديقة، ورأتهما يتحدثان قليلًا ليرفع (سنحوت) وجهه نحوها مبتسمًا كأنما يطمئنها. ابتعدت عن النافذة بعد أن ثبتت الحبل جيدًا وهمست: "يا إلهي كن معنا!.."

***

عادت إليها (ددت) مرة أخرى بعد فترة لتخبرها أن الطريق خالٍ وأن (رام) يظن أنها أتت لتجالسها حتى تنام، وأن عليها التحرك الآن كي لا تترك (سنحوت) ينتظر أكثر فينفضح أمرهم.

"حسنًا.."، قالتها (ماني) متجهة نحو النافذة بينما خرجت (ددت) مسرعة مما أثار دهشة (رام) ليسألها هل نامت (ماني) بتلك السرعة، فأخبرته أنها وجدتها نائمة بالفعل، وأسرعت نحو جناح الجواري

لإحضار أشيائها التي أعدتها منذ قليل للرحيل وهي تفكر في مدى سلامة ما تفعل، هل كان اتباعها لشعورها بتلك الصورة في صالحها أم لا؟!.. توقفت لحظة في المسافة بين جناح الجواري وبين الباب الخلفي للقصر، لكنها في النهاية حسمت أمرها متجهةً نحو الحديقة هامسة لنفسها في حزم: "بالتأكيد لن أتراجع الآن.."

في نفس اللحظة اتجه (محب) نحو غرفة (ماني) مرة أخرى فطالعه (رام) في شك وسأله عن سبب حضوره ثانيةً خاصة وأن (ماني) قد خلدت للنوم منذ قليل، فاقترب منه (محب) صامتًا ووقف أمامه عاقدًا جبينه مفكرًا، فعاد (رام) يقول له أن ما يفعله يزيد وطأة الأمر عليه، ويجب أن يهون على نفسه قليلًا فهي في النهاية إرادة الآلهة.

وضع (محب) كفه على كتف (رام) ونظر في عينيه مباشرة حتى أن (رام) سأله عما إذا كان بخير، لكن (محب) عوضًا عن أن يجيبه طلب منه أن يسامحه، بدت علامات الدهشة على ملامح (رام) وظلت هكذا للحظة بعد أن عاجله (محب) بضربة قوية على رأسه فقد معها اتزانه ووعيه ليسقط بين ذراعيّ (محب) الذي حمله إلى داخل الغرفة أمام نظرات (ماني) القلقة وهي تسأله عما فعله به، فأجابها وهو يرقد (رام) فوق الفراش في رفق أنه سيفيق قريبًا.

"هيا أنتِ الآن.." قالها وهو يساعدها على التمسك بحافة النافذة معتمدة على الحبل المعلق بها، ولم يتركها حتى كادت تصل إلى يديّ (سنحوت) المنتظر بالأسفل، وحين تأكد من هبوطها سارع هو الآخر بترك الغرفة ليلحق بهم حيث ينتظرونه عند أطراف الحديقة.

بعد لحظات كان قد لمحهما ومعهما (ددت)، واستمع إلى (سنحوت) وهو يهمس لـ(ماني): "دمتِ لي سالمة.." دفعهم (محب) من مخرج يعرفه في الحديقة وقبض على كف (ددت) ليتبعهم منبهًا إياهم أنه لا وقت لهذا الحديث الآن، وفي لحظات ابتلعهم ظلام الليل تمامًا!..

أوشك الفجر وهم بعد يقطعون المسافة بين قصر الحاكم والحي الذي يسكنونه، كان (محب) يسبقهم ببضع خطوات لاستطلاع الطريق لكنه شعر بالقلق وهو ينقل بصره كل فترة بين (ماني) و(ددت) بسبب ذلك الإرهاق البادي على ملامحهما، فأشار إلى (سنحوت) - الذي يسير بالقرب منهما - ليطمئنه على حالهما، وفتر قلقه حين أشارتا إليه مجيبتين بالخير.

سبقهم (محب) في الوصول إلى المنزل متسترًا بالظلام والزروعات الوارفة، ووقف ينتظرهم بجوار باب الحديقة، وكانت (ددت) أول من لحقت به، فارتكنت إلى سور الحديقة بجواره وهي تسأله عما سيفعلون الآن، فقال لها أن تستريح بعض الشيء حتى يلحق بهما

(سنحوت) و(ماني) ويحضر والديه أيضًا. توترت بعض الشيء عند ذكره لوالديه فتطلع إليها مستفهمًا عما بها، فسألته بعد لحظة لو كان أبواه يعلمان بأمرها، فابتسم لها وهو يشير إلى والده الذي أطل في تلك اللحظة من الشرفة - ربما للمرة المائة - باحثًا عن وصولهم وهو يطمئنها بألا تدع هذا الأمر يشغلها، ثم التفت نحو أبيه يناشده أن يسرع بالتحرك هو وأمه.

لحق بهما (سنحوت) و(ماني) أخيرًا، وبينما ارتكنت (ماني) إلى السور بجوار (ددت) سأل (سنحوت) (محب) عن خطوتهم التالية، فأجابه أنه يجب عليهم الخروج من البلدة بأسرع ما يمكنهم لأن الكاهن لن يترك حجرًا على حجر فيها دون أن يبحث عنهم خلفه فور اكتشافه ما فعلوه، وأسرع الوسائل الآن هي استقلال أول قارب يبحر من البلدة، فأجابه (سنحوت): "لكن دعوني أمر على داري لأحضر بعض متعلقاتي.." فأومأ له (محب) بينما ربتت (ماني) على كتفه في تأثر وهي تطلب منهم جميعًا أن يسامحوها بعد أن تسببت في كل هذا، فاستنكر (محب) كلماتها وهو يسألها هل توقعت شيئًا بخلاف تصرفهم هذا، أم ظنت أنه ستهنأ لهم حياة بدونها؟!..

وقبل أن تجيبه اندفعت أمها نحوها لتضمها وتبكي، فبكت (ماني) بدورها بينما صمت الجميع للحظات متأثرين حتى والدها ظل ساكنًا

إلى أن التفتت له هي تقبل يده فربت على رأسها يسألها لو كانت بخير حقًا، وحين أجابته مطمئنة نبههم (محب) قائلًا: "هيا.. دعونا لا نضيع المزيد من الوقت.." قالها وكان أول من غادر فيهم، وللمرة الأخيرة جالوا ببصرهم مودعين المكان بنظرات متألمة وكل منهم ينهي نظراته في عينيّ (ماني) كأنما يؤكد لنفسه أن حياتها بينهم أغلى مما يحملون من حنين، أما هي فقد ضمت كل شبر بين أجفانها – كأنها تحاول أن تقتطف منه ذكرى تحملها معها - وهي تشعر كما لو أنها تفقد جزءًا من نفسها مع الرحيل!..

***

مع شروق الشمس اتجه ذلك الحارس - وخوذته على ذراعه - لتسلم ورديته من (رام)، وفي خطوات متمهلة انعطف نحو الغرفة في مرح يريد مفاجأة (رام) مازحًا: "صباح الخير يا (رام)، كيـ...."

لكنه صمت عن باقي عبارته متجهمًا حين لم يجد (رام) في مكانه ووجد باب الغرفة مفتوحًا، فشهر رمحه وتقدم إلى الداخل في حذر تبخر منه جازعًا حين لمح جسد (رام) المسجى على الفراش وأخذ يحاول إنعاشه مرددًا: "يا أيتها الآلهة!.. ماذا حدث؟.. ماذا حدث؟!.." بدأ (رام) يتحرك متأوهًا في ألم، متحسسًا موضع إصابته وهو يتطلع إلى زميله دون أن يجيب، لكنه بنظرة سريعة حوله كان قد استوعب ما حدث تمامًا..

"أجبني يا (رام).. ماذا حدث؟!.. ومن فعل بك هذا؟!.." عاد زميله يسأله في إلحاح بينما ظل هو صامتًا للحظة، وبدا كأنما اتخذ قرارًا بداخله حين رفع عينيه نحو زميله وأجابه أنه لا يذكر سوى تلقيه ضربة شديدة فقد بعدها وعيه تمامًا.

أخذ زميله بعدها يدور حول نفسه مردداً "لقد هربت.. هربت.." وأخذ يرتجف من مجرد التفكير فيما سيحل بـ(رام) من العقاب، وربما بكل حراس القصر، وما أن التفت ليسأل (رام) ما الذي سيفعلاه الآن حتى فوجئا بصوت الكاهن يعلو من خارج الغرفة سائلًا عن الحارس المناوب، ثم دخل الكاهن إلى الغرفة بضمادة على جرح جبهته وهو يصيح بهما: "ماذا يفعل كلاكما هنا بالداخل؟!.."

طأطأ (رام) رأسه في صمت، بينما ارتجف الحارس الآخر هلعًا والكاهن يدير عينيه في الغرفة ويسأل صارخًا هذه المرة عن الفتاة أين ذهبت؟!..

مرت لحظة انقلبت فيها سحنة الكاهن وهو يتجول في الغرفة حتى وصل إلى النافذة دون أن يجرؤ أحدهما على الرد، وانخفض صوته وهو يتجه ليقبض على الحبل المتدلي منها وهمس بصوت من الجحيم:

- "إذن فقد هربت!.."

***

obeikan.com

أخذ (سنحوت) يتلفت حوله في توتر وهو يعود إليهم بما يلزم سفرهم من طعام وشراب، فمع الشروق بدأ المرسى يمتلأ ببعض الباعة الجائلين وبعض المسافرين من هنا أو إلى هناك، وكلما تلاقت نظراته مع أحدهم ارتفع توتره أكثر رغم أنهم كانوا جميعًا يتخفون بعباءات ذات أغطية رأس تخفي نصف وجوههم تقريبًا. جلس إلى جوار (ماني) وهو يهمس لها بأنه يشعر كما لو كان الجميع قد تعرفوهم ولحظات ويطبق الحراس على المرسى ليسوقهم إلى محبسهم. ابتسم (محب) رغم قلقه وهو يؤكد له أن تلك كلها هواجس غير حقيقية، وأن ملابسهم تلك كافية كي لا يتبين ملامحهم أحد حتى يبحر القارب الذي ينتظرونه.

"ومتى سيبحر ذلك القارب؟.." سألته (ماني) في توتر مماثل، فأجابها وهو يتطلع نحو القارب أنه على ما يبدو ليس الآن، فصمت الجميع في ترقب ما عدا الأم التي دعت الآلهة أن تحفظهم. ظلت (ماني) على صمتها حتى بعد أن حاول أبوها طمأنتهم وحثهم على تناول بعض الطعام لأن أحدهم لم يطعم شيئًا منذ ليلة أمس، حتى بعد أن وضعت أمها بعضًا من الطعام بين يديها ظلت ساهمة، فمال (سنحوت) نحوها يسألها عما ألمّ بها، بقيت لحظات تتطلع لهم جميعًا وقالت في خفوت منكسر أنها السبب فيما هم فيه الآن، فبين يوم وليلة تركوا منزلهم وخسر أبوها تجارته وسوف يرحلون عن بلدتهم دون أن يعلموا حتى إلى أين، فمن يُلام سواها على كل هذا، وبكت وأقسمت

لهم أنه لو كانت حياتها ثمنًا لسعادتهم ما ترددت في بذلها أبدًا. ضمتها أمها، بينما ركع (محب) إلى جوارها يمازحها في مرح بأنهم سيبقون معها دائمًا شاءت ذلك أم أبته، فابتسمت من بين دموعها ووالدها يؤكد لها أن وجودها بينهم سالمة وآمنة هو أقصى ما يتمنون. أما (سنحوت) فقد ربت على كفها دون كلمات، فقط تطلع إلى عينيها طويلًا وابتسم في حنان. عاد (محب) يتحدث في مرح وهو يشير إلى ذلك القارب النائي في آخر المرسى ويتساءل في ماذا سيمررون الوقت حتى يتكرم ويقرر ذلك المراكبي الإبحار؟!..

"لا شيء سوى الانتظار.." أجابته (ددت)، ولدهشتها بدا القلق خلف ملامحه المرحة والذي لم يلاحظه غيرها، فسألته في خفوت عما يقلقه وهي شبه تعلم، فأجابها بصوت خفيض أنه على يقين من أنهم ما أن يكتشفوا اختفاءهما في القصر حتى ينشط كل حارس هناك للبحث عنهما، ومن الطبيعي أن يتجهوا للبحث هنا في مرسى القوارب، أي من الممكن أن يفاجئونهم في أية لحظة قبل موعد الإبحار وهم لا يملكون سوى الانتظار كما قالت هي!..

"إذن فهناك خطر على (مانى)!.." تفاجأ بـ(سنحوت) يهمس بها دون أن يبدي لـ(ماني) وأبويها أي شيء، فجاوبه (محب) دون أن يلفت النظر أيضًا بأن الخطر أصبح يستهدفهم جميعًا وليس (ماني) وحدها. صمت

(سنحوت) حتى ظن (محب) أنه لم يستمع إليه من الأساس، لكنه تفاجأ به يقول بصوت مرتفع: "ما رأيكم أن ننتظر بالقارب حتى موعد الإبحار؟!"

التفتوا جميعًا نحوه ووافقه (محب) مشجعًا الفكرة ومتعللًا بأن ذلك أفضل كي ينقل هو و(سنحوت) أمتعتهم إلى القارب دون تعجل، وبالفعل ترك الفتاتين سويًا وأخذ بيد أبويه يساعدهما على الصعود إلى القارب، بينما أخذ (سنحوت) يحمل الأمتعة على سطحه، لكن لحظات وعادا مضطربين مما جعل (ماني) تسأل عما حل بهما بينما تعلقت عينا (ددت) بوجه (محب) في خوف و(سنحوت) يقول: "أسرعا حتى لا يلحق بنا الحرس.." فهتفت في فزع: "الحرس؟!.."

جذبها من يدها و(محب) و(ددت) من خلفهما وهو يؤكد على أنهم إن لم يتحركوا الآن قد يفعلوا، وفجأة امتلأ المرسى بمجموعة من الحرس يتحركون في توتر وحزم سريعين جعل الناس يراقبون في صمت، بينما أسرع هو و(محب) بالفتاتين ليختفوا داخل القارب!.

وقف كبير الحرس في وسط المرسى هاتفًا: "صدر أمر- من كاهن (آمون) العظيم ومن الحاكم- بإلقاء القبض على كل أفراد عائلة المدعوة (ماني) حسناء البلدة.. فقد هربت من إرادة الآلهة بمعاونة إحدى جواري قصر الحاكم ومطلوب القبض عليها أيضًا.. لذلك فعلى من

يراها أو يرى أحدًا من أسرتها الإسراع بإبلاغ الحرس وإلا أصبح متواطئًا معهم.." ولم ينتظر جوابًا سوى صمت الحاضرين التام، وخرج في حين بقي بعض جنوده منتشرين بالمرسى!..

تطلعت (ماني) لما يحدث حولها في رعب وهمست لـ (سنحوت) بأنهم لن يفلحوا وحتمًا سيُقبض عليهم في أي لحظة الآن، حاول أن يهدّئها وهو يذكرها بأن القارب سيبحر بعد قليل وينتهي كل شيء، وآثرت الصمت خشية أن ينفضح أمرهم إذا ما لاحظ أحد قلقها لو أجابته!..

بعد لحظات، تسلل إلى مسامعهم وهم في القارب سؤال أحد المارة لبائع الفخار في فضول عن تلك القصة العجيبة، فكيف تهرب حسناء البلدة من إرادة (آمون)؟!.. ألا تخشى غضبة (حابي)؟!.. سأله البائع عما إذا كان غريبًا عن البلدة، فاندهش الرجل وأجابه بالموافقة وسأله كيف عرف ذلك، فأخبره البائع أن جميع أهالي البلدة يعلمون قصة تلك الفتاة ويعلمون جيدًا أنه ما كان يجوز اختيارها كحسناء للبلدة حيث لا تنطبق عليها شروط الترشح ضمن حسناوات الوادي اللاتي تخرج منهن عروس (حابي)، ثم إنها ابنة تاجر وليس مزارعًا أو حرفيًا مثلًا!..[1]

"فلمَّ اختيرت إذن؟!" تساءل الرجل في حيرة ازدادت مع رد البائع في

---

(١) شروط خيالية.

أسى بأنه أمر الكاهن، وهنا تعطلت الحيلة وذبحت الإرادة في خنوع مرير، وفجأة – ومن داخل القارب أيضًا – لمحوا الكاهن يسير بين المارة يتفرس في وجوههم بحدة جعلت (ماني) تصرخ في رعب دلّه على موقعها في نفس اللحظة التي كان يتحرك فيها القارب، فصاح في حرسه بأن يسرعوا في إحضارهم لكن صمتًا قاتلًا أطبق عليهم هذه

المرة حين أجابه كبير الحرس بأن المرسى ليس به قاربًا واحدًا ليلحقوا بهم فورًا، فقد أبحرت كل القوارب قبل ذاك الذي استقلوه!.

صرخ الكاهن وعيناه تتابعان ابتعاد القارب: "لن تفلتي مني ما حييتِ.. أتسمعين؟!.. لا أنتِ ولا أي من أفراد أسرتكِ اللعينة.." والتفت إلى الجمع من حوله الذين أخذوا يتطلعوا نحوه في خوف من نظراته النارية الجنونية، ثم عاد يتطلع نحو الأفق متابعًا في توعد - كأنما لا يزال يحدث (ماني) – بأنها لن تنعم يومًا أو تهنأ بالًا بعد تلك اللحظة، وسوف يجدها أينما تكون ولو في عمق النهر، وساعتها لن يرحمها أبدًا.. ابدًا!..

أخذت (ماني) تراقب (محب) و(ددت) الجالسين منذ فترة يتحدثان في همس، وتنقل بصرها بينهما وبين والديها القلقين، ثم شردت من كل هذا ووجدت كل ما حدث يتداعى أمام ذاكرتها بلا رؤى وكل ما كان

يُعاد بلا فعل، منذ لحظة خروجهم من البلدة الحبيبة وهي لا تستطيع أن توقف شريط ذكرياتها المنساب أمام ناظريها، وبلا وعي وجدت نفسها قد استعادت كل ما كان منذ لحظة زيارة الكاهن المشؤومة لدار أبويها وحتى لحظة خروجها هاربة من البلدة مرورًا بقرار والدها السفر إلى سيناء.

اقترب (سنحوت) وجلس بجوارها باسمًا وهو يسأل في هدوء "ماذا بعد؟!.." رفعت رأسها نحوه ساهمة

تسأله ماذا كان يقول، فربت على كتفها مازحًا وهو يسألها من الذي يشغل بالها سواه، ابتسمت في حزن رغمًا عنها ولم تجب، فلامها على عودتها لمثل تلك الحالة وحاول أن يهوّن عليها مؤكدًا لها أن في سيناء ستكون لهم جميعًا حياة جديدة سعيدة وآمنة، وأشار نحو (محب) و(ددت) وقال لها أن تنظر إليهما وتجيب عليه، ألم تكن هي السبب في اجتماعهما؟!.. أليست تلك حياة أخرى وُلدت علي يديها؟!.. فتنهدت أخيرًا مبتسمة وأومأت برأسها قائلة: "أنت على حق.."

فاجأهما (محب) الذي انقض عليهما سائلًا فجأة في مرح متى سيتخلون عن ذلك التكاسل ويتفضلون بالبدء في السير من جديد؟!..

"رهن إشارتك يا أخي العزيز.." نهضت (ماني) تمازحه بدورها فتصنّع التفكير وهو يعدد أوامره إليهما، فأولًا عليهم ابتياع طعام وشراب يكفي لرحلتهم حيث لا يعلمون متى سيقابلون أحد الباعة مرة أخرى، وثانيًا عليهم الاستعداد بأغراض للمبيت في الخلاء، واختتم كلماته وهو يسأل بطريقة عسكريـــة: "هل عُلم ذلك؟!".. فضحكوا جميعًا و(ماني) تجيبه بتحية رسمية: "نعم سيدي" بينما تدخل (سنحوت) قائلًا: "قد تم شراء الأطعمة بالفعل يا سيدي وبقي أن نشتري خيمًا للمبيت.." وتوقف (محب) عن المزاح وهو يستدير نحو (ددت) قائلًا لها في حنان أن تنتظره مع شقيقته حتى يحضر هو و(سنحوت) ما ينقصهم ويعودان، فابتسمت هي في خجل جعله يتسمر أمامها دون حراك حتى جذبه (سنحوت) من ذراعه ضاحكًا وهو يهتف به: "هيا يا أخي.. هيا.." فضحكت الفتاتان بدورهما وقالت (ماني) مداعبة: "أليس رائعاً أخي (محب)؟!.." فشعرت (ددت) بالخجل أكثر وطلبت منها التوقف عن ذلك العبث، لكن (ماني) استمرت في مشاكستها وهي تسألها في خبث أن تدّعي أن اهتمامها بأخيها هو مجرد عبث، فثارت عليها (ددت) أكثر وضربتها في كتفها في رفق وهي تحذّرها إن لم تكف فضحكت (ماني) لكن ليس كثيرًا، إذ تجمدت ضحكتها على شفتيها فجأة وهي تطلق

شهقة فزع وتقفز من مكانها وتتبعها (ددت) وأبواها حين يلمحون بعض الجنود يلاحقون (محب) في إصرار، وتفزع الأم هاتفة: "ولدي..."

رأوا (محب) وهو يناورهم بالاختباء بين الباعة والمارة بينما ظهر (سنحوت) أمامهم فجأة وألقى أمام (ماني) حقائب كبيرة من القماش هاتفًا: "لقد لحق بنا حراس المعبد إلى هنا وتعرفوا على (محب).. سأذهب أنا للَّحاق به وأنتما انطلقا مع أبويكِ نحو بداية الطريق.. هيا سريعًا وسوف نلحق بكم.." رفضت (ددت) في اضطراب وأصرت ألا تتحرك بدون (محب)، لكنه لم يمهلهم وحمل الحقائب ليلقيها بين يديهم آمرًا هذه المرة أن يسبقونهم، فجذبتها (ماني) من يدها في صمت وانطلقتا مع الوالدين نحو الطريق في حذر كي لا يلفتوا انتباه الحرس، وبينما اشتبك (محب) مع اثنين منهم كان (سنحوت) قد لحق به محاولًا تخليصه من بين أيديهما ونجحا بالفعل في الافلات أخيرًا، وانطلقا مبتعدين لكن حارسًا آخر حاول أن يلحق بهما فصاح (سنحوت): "اسبقني أنت يا (محب) وسألحق بك بعد أن أضلله قليلًا.. لن ينتبه إلى الفرق بيننا لو أن كلانا أخفى وجهه بغطاء الرأس.." قالها ولم يمهل (محب) كي يجيبه، بل دفعه خلف أحد الحوانيت وهو يرفع له غطاء رأسه ويفعل المثل و(محب) يخبره أنه لن يفعل ويتركه وحده،

لكنه لم يلتفت إليه واندفع في اتجاه مخالف والحارس يسرع خلفه ظنًا منه أنه (محب)، بينما هاجم باقي الحراس الحوانيت والباعة الجائلين بحثًا عن الباقين، ولكن بلا أدنى أثر!..

ظل (محب) مترددًا بين اللحاق بـ (سنحوت) أو اللحاق بأسرته مع كل ما يرى، ولكنه فجأة وجد من يسحبه داخل الحانوت هاتفًا في همس :"من هنا يا ولدي.." استدار ليجدها امرأة مسنة تدفعه من باب ثانٍ في نهاية حانوتها وهي تخبره أنه من هنا سيجد طريقًا رمليًا إن سار فيه نحو الغرب سيعود به إلى ضفة الوادي من جديد.

في تلك اللحظة علم أن القدر اختار له اللحاق بأسرته، فشكر المرأة المسنة وهو يخبرها أنه ينوي الاتجاه شرقًا وليس غربًا، فكررت من خلفه في دهشة "شرقًا!.." هز رأسه موافقًا وهو يخرج وقال: "نعم يا خالة.. إلى سيناء.."

***

obeikan.com

عُهر مقدس!..

obeikan.com

obeikan.com

مع سوط في يده اتجه الكاهن نحو سجن المعبد ومن خلفه بعض الحرس، وعند زنزانة بعينها أعطى المفتاح الذي يحمله لكبير الحرس الذي فتح الباب فورًا وظل في الخارج دون أن يجرؤ على متابعة الكاهن إلى الداخل!..

وفي الداخل، كان هناك سجين شاب– أو بقاياه - ملقى على فراش بالٍ، لم يقو على النهوض حين أمره الكاهن بذلك من فرط ما يعاني من آثار التعذيب، فلكزه الكاهن بالسوط في وحشية وهو يذكره أنه لو كان اعترف بالحقيقة لرحمه، فتساءل السجين كيف يعترف بما لا يعلم، فلم يتمالك الكاهن نفسه وصرخ في وجهه مستنكرًا كيف لا يزال على عناده حتى الآن؟!..

"لكني حقًا لا أعرف شيئًا!.." تمتم بها الشاب في خفوت رغمًا عنه، فما كان من الكاهن إلا أنه صرخ مستدعيًا كبير الحرس الذي أتى في سرعة ندم عليها مع استماعه لأوامر الكاهن بأن يقيد الشاب أمامه مصلوبًا وينزع عنه ثيابه!..

تردد كبير الحرس للحظة وهو ينظر في عيني السجين ولدهشته لمح ابتسامة مهتزة على طرف شفتيه وهو يومئ له كأنما يعفيه من حرج تنفيذه للأمر، بينما اقترب الكاهن من السجين هامسًا في وحشية متشفية: "ولنرَ بعدها ما تخفيه!.."

***

كان الغروب قد حل والصحراء حولهم بدت بلا نهاية حين لمحوا بعض بيوت الطمي الصغيرة على جانب الطريق تظللها عن أعينهم أشجار النخيل الوارفة، وأمام بيت بعينه رأوا شيخًا مُسناً يفترش حصيرًا وبصره شاخص نحو السماء التي بدأت تملأها ظلال المساء القاتمة.

بدا وكأن الرجل لا يشعر بمن حوله حتى أنه لم يحرك ساكنًا حين تقدمت (ماني) لتستند إلى جذع شجرة وهي ترمقه في فضول، بينما همست لها (ددت) بعد أن لحقت بها بأنها لم تعد تقوى على السير أكثر من ذلك اليوم، وتتمنى لو يوافقها الجميع المبيت هنا الليلة خاصة وقد حل المساء. أخذت (ماني) تراقب الشيخ في فضول يتزايد وهي تتساءل أتلك قرية ما أو ما شابه، أم....

"(سنحوت)!. يا إلهي!..كيف سهوت عن الاطمئنان عليه حتى الآن؟!.." هتفت بها (ماني) وهي تلوم نفسها، مما جعل الرجل المسن يستدير نحوهما في ابتسامة بشوشة انشغلت عنها (ماني) وهي تبحث عن (سنحوت) ببصرها فتجده - بقميصه الممزق وبقعة الدماء الكبيرة التي تلوث كتفه - متكئًا على ذراع (محب) وهما يتقدمان نحوهما ومن خلفهما أبواها، فأسرعت نحوه تسأله لو كان يشعر بالألم مجددًا، فابتسم لها مطمئنًا أنه بخير لكنه شعر فقط ببعض الدوار.

"اعتنِ أنتِ به وأنا سأرى أمي وأبي وأحضر بعض الماء لنطهر جرحه.." قالها (محب) فأمسكت بيد (سنحوت) لتجلسه أسفل الشجرة وهي تتابع والديها اللذان عاونهما (محب) على الجلوس أخيرًا، وحين اطمأنت عادت تهتم بجرح (سنحوت) وهي تتطلع إلى قطرات الدماء التي لوثت الضمادة في قلق وسألته لو كان يتألم، فطمأنها أنه بخير. نظرت له طويلًا متمنيةً لو كانت أصيبت بسهم الحارس عوضًا عنه، وأخبرته أنها فخورة بشجاعته لكنها أيضًا تموت رعبًا لو مسه سوء، فاعتدل ضاحكًا في إرهاق وهو يخبرها أنه أحمق تمامًا لأنه قرر مواجهة سهام الحارس بدلًا من أن يهرب منها وهي تسميها شجاعة، أية شجاعة تلك التي تجعله يقف أمام سهم لا يخيب؟!..

أخذ (محب) يبحث في قربات المياه التي يحملونها فلم يجد إلا القليل، ونبهته أمه إلى أن الماء نفد تقريبًا، تطلع للحظة نحو الشيخ وهمس لأمه بأنه سوف يذهب ويسأله بعض الماء، لكنه فوجئ باختفائه بداخل داره في نفس اللحظة تقريبًا التي توجه فيها نحوه فانتظره أمام الباب، ولدهشته عاد بعد قليل حاملًا جرة ماء صغيرة وناولها له فشكره بكلمات قليلة أجابه الشيخ عليها بترحاب وأخبره أنه سيشعل بعض الحطب ليشعروا بالدفء، ثم انسحب بالفعل ليلقي بعض الأغصان الجافة في "الراكية" الصغيرة التي تتوسط الباحة الصغيرة أمام الدار.

نهضت (ماني) بعد أن اطمأنت على (سنحوت) - وأبدلت ضمادة جرحه بأخرى نظيفة - لتجذب (محب) متجهة نحو الشيخ الذي جلس مبتسمًا بجوار "الراكية" يتطلع نحوهم، فبادره (محب) بالسلام فأجابه: "وعليك مثله يا ولدي.. تأخرتم!.."

تعجبت (ماني) وهي تسأله هل كان يعلم بمجيئهم كي يتوقع أنهم تأخروا، فابتسم وهو يقول أن جميعهم عليها قادمون وغادون، فتبادلت هي و(محب) نظرات الاندهاش بينما تحامل (سنحوت) على ألمه ليقترب منهم في خطوات بطيئة ويستمع إلى سؤال الرجل: "هل سافرتم كل تلك المسافة دون أن يكون معكم ماء كافٍ؟!.." فأخبرته

(ماني) أنهم كان لديهم الماء لكنه نفد تقريبًا بعد طول الرحلة، وجلست فجأة إلى جواره تسأله كيف عرف أنهم..... قاطعها مبتسمًا وهو ينظر نحو السماء قائلًا أن (تحوت)[1] يعطينا من المعرفة قدر حاجتنا إليها، وتطلع نحوها مباشرة وابتسامته تتسع أكثر فأكثر وسألها أن تحمد ربها على نجاة رفيقها، وأشار نحو (سنحوت) الذي جلس بجوارها أرضًا بينما انسحب (محب) ليرى حال والديه و(ددت)، فأجابته مندهشة بأنها قد فعلت!..

بقيت بعدها صامتة تنقل بصرها بينه وبين نيران "الراكية" التي أخذ يحرك الأحطاب بداخلها، حتى رفع الشيخ رأسه نحوها فجأة وقال لها أن تدعو أبويها لينالا قسطًا من الراحة ويتناولا بعض الطعام، وبعد

لحظات كان قد أفسح لهما بالفعل مكانًا في بيته للراحة حتى ينتهي (محب) من نصب خيمات المبيت هو و(سنحوت) - الذي أصر على مساعدته - بينما قامت الفتاتان بإعداد بعض الأطعمة.

---

(١) (تحوت): إله القمر عند الفراعنة، والمعبود الأكثر شعبية في سيناء، ولفظ "سيناء" مشتق من "سين" وهو إله القمر في الحضارة البابلية، والذي انتشرت عبادته في غرب آسيا.

بعد فترة توجه الشيخ نحو (ماني) وظل يرقبها للحظات أمام نظرات (ددت) المندهشة، ثم ربت على كتفها قائلًا في هدوء: "ستكونين على حق دائمًا إن أحسنتِ استخدام عقلك وأمعنت التفكير فيما حولكِ.. فالتفكير السليم هبة لعللكِ تشكرين الإله عليها"..

هزت رأسها في استغراب، بينما استدار الشيخ نحو (سنحوت) الذي جلس قريبًا منهم – بعد الانتهاء من عمله هو و(محب) - وأوصاه أن يحرص عليها جيدًا ويحميها قدر ما يستطيع، فنهض (سنحوت) في صعوبة وهو يقول للشيخ إن حديثه عجيب، لكن الشيخ حافظ على ابتسامته وهو يسأله أليست أرضهم هي مقصد ترحالهم؟!.. حاولت (ددت) أن تسأل الشيخ "أنحن هنا في....." لكنه أجابها قبل أن تفعل بأنهم هنا في واحدة من قرى سيناء، فلم يتمالك (سنحوت) نفسه هذه المرة وسأله كيف علم أنهم يقصدون سيناء ومن الممكن أن تكون وجهتهم فينيقية أو حتى بلاد كنعان، لكن الشيخ لم يجبه واتجه إلى بيته وعلى شفتيه ابتسامة مضيئة!..

***

تجمع أهالي البلدة في فضول حول منزل أسرة (ماني) وهم يطالعون حرس المعبد المنتشرين حوله حاملين عشرات المشاعل، وتساءلوا عن

سر تواجدهم هناك ومعهم الكاهن أيضًا في مثل هذا الوقت من الليل الذي أوشك أن ينتصف. مرت لحظات ظل فيها الكاهن صامتًا يتطلع في وجوههم بتمعن - كأنما يريد التأكد من هيمنته الكاملة على عقولهم – ثم هتف بالجنود مشيرًا نحو المنزل: "أريدكم أن تحيلوه رمادًا من فوره.." سرت همهمات خافتة مستنكرة بين الأهالي فاستدار نحوهم يخبرهم أنها لعنات (رع) تلاحق من عصاه وهو من أمره أن ينزلها بهم ليكونوا عبرة للجميع، فهمس رجل لآخر في استنكار بأنهم حتى ليسوا هنا كي ينالوا ذلك الجزاء المزعوم، وأنه يكاد يقسم أن ما يفعله الكاهن ليس إلا من وحي حقده على الفتاة وأسرتها، كما لو كان واجبًا عليهم تلقي بطشه في صمت!..

"أتستطيع أن تقولها بصوت مرتفع؟!.. اصمت وإلا فلن يرحمنا!.." قالها جاره في فزع بينما أدار الأول وجهه في أسف وسخط وهو يسأله هل فيما يفعله الكاهن الآن أية رحمة، فعاد الجار يرجوه أن يصمت ويذكّره أن لكل منهما أسرة وأطفال بحاجة إليهما، يجب أن يخافا عليهم وألا يضحيا بهم، وهنا صمت الرجل في عجز أليم!..

نفس العجز الذي شعر به الجميع حينما بدأ الجنود في إلقاء المشاعل داخل حديقة المنزل لتشرع النيران في التهام كل شيء، ونظرات الأسى والحسرة تكلل أبصارهم الشاخصة نحو ذلك الكاهن تسأل كلها سؤالًا وحيدًا.. أما من نهاية لكل هذا؟!...

***

في المساء كان الجميع قد التف حول "الراكية" لتناول الطعام بعدما انضم إليهم بعض من أهالي البلدة ترحيبًا بهم، التف حول (ماني) مجموعة من الأطفال يلهون معها فرحين ببشاشتها معهم، وكانت تميز الطفلة (مير-يام) في سهولة بوجهها المستدير وطابع الحسن الذي يرسم ابتسامة صغيرة على وجهها كلما فتحت فمها دون حتى أن تتحدث. ورغم أن الوقت كان لا يزال مبكرًا إلا أنهم لم يستطيعوا السهر كثيرًا في تلك الليلة وأووا للنوم جميعًا من شدة الإرهاق.

اتخذت الفتاتين مع الأم أماكنهن بداخل بيت الشيخ بعد أن رفض بشدة تركهن يبتن بإحدى الخيمات، أما هو والباقين فقد جهزوا لمبيتهم فيها. استسلم جسد (ماني) تمامًا للأغطية الوثيرة وإن كان ذهنها لم يستطع أن يستسلم للنعاس بسهولة، كانت قد أشفقت على (مير-يام) التي أخذت تبكي حين تركتها (ماني) للنوم، لكنها كانت مشفقة وملهوفة أكثر على (سنحوت) وهي ترنو نحوه من النافذة وهو يجلس أمام نيران

الراكية في شرود، لا تدري كيف قاوم أن يخلد إلى النوم رغم إرهاقه الشديد وآلام جرحه، وأغلب ظنها أن باله لايزال منشغلًا عليها. التفتت تنظر للخيالات المتراقصة من وراء الخيمة الكبيرة التي يبيت فيها والدها وأخوها مع ذلك الشيخ، وعادت ببصرها تنظر إلى أمها الناعسة إلى جوارها والتي كادت أن تهلك رعبًا عليهم جميعًا، ثم إلى (ددت) التي عرفت طيب معدنها مما تحملته معهم.

لحظات قليلة وبدأت تتداخل أمام عينيها الرؤى في ذهاب لوهم أحلامها وإياب لضياء الفجر الذي أوشك، وحين أسبلت جفنيها أخيرًا كانت قد فقدت وعيها الظاهر والباطن!..

***

بداخل سجن المعبد الرهيب، وهناك في تلك الزنزانة الباردة فتح (أوناس) عينيه في صعوبة شديدة فلم ير سوى الأرض القذرة من أسفل قدميه يعلوها جسده المعلق في الهواء، حاول أن يقيم رأسه - الذي كان يدور بشدة – وحين فعل اصطدمت عيناه بعينيّ الكاهن بنظراتها الوحشية، والذي أخذ يلهو بالسوط الذي في يده ويضرب به الهواء بين لحظة وأخرى!..

"هل تتألم؟!.." سأله الكاهن في نفس اللحظة التي اكتشف فيها أنه معلق من وسطه إلى الجدار بينما شُدت ذراعاه على قائم خشبي وهي

ملطخة بدمائه، لم يدر هل يرضي وحشية ذلك المهووس ويجيبه بنعم طالبًا منه العفو عنهم أم يصمت، لكنّ الكاهن لم يمهله وجذبه من شعره ليرفع رأسه عنوة ويخبره أنه مستعد لتركه والعفو عنه بشرط وحيد، فلم يتمالك المسكين نفسه إذ قال: "بم تأمر سيدي الكاهن؟.." فاتسعت ابتسامة الكاهن أكثر مبتعدًا وقال إنه سيخبره بعد أن يأمر الحرس بحل وثاقه وإراحته طالما قرر التعاون، وأكد عليه أن تعاونه في مصلحته هو أكثر من أي شخص آخر.

رغم ما يشعر من وهن إلا أنه شكر الكاهن واستسلم لزملائه الحراس وهم يفكون وثاقه من فوق ذلك القائم، وحين لمس الأرض أخيرًا انحنى أمام الكاهن وطلب منه العفو عن زميليه أيضًا، لكنّ الكاهن أجابه بضحكاته الساخرة التي ظلت تتردد أصداؤها بداخل الزنزانة وهو يخرج مشيرًا للحرس بإحضاره قائلًا: "ها هما.. احملهما معك إن استطعت.." فاستدار ينظر حيث كان معلقًا منذ قليل، ليرى زميليه مصلوبين على قائمين مشابهين للذي كان يحمل جسده، أو بمعنى أدق.. بقاياهما!..

***

منذ أن استيقظت (ماني) في الصباح الباكر وهي على جلستها تلك أسفل الشجرة لا تتحرك، حتى حين أتتها (مير-يام) حاملة دميتها لتلعب معها أخذت هي تلاعبها في شرود، كما أن (ددت) حين استيقظت وبادرتها بالصباح أجابتها أيضًا في شرود دون حتى أن تنظر نحوها!..

حاولت (ددت) استدراجها للكلام وهي تسألها عن حال (سنحوت) اليوم، فأجابتها بأنها لا تدري لأنه لم يستيقظ حتى تلك اللحظة. ظلت (ددت) تتطلع إليها لحظة صامتة، ثم حملت بعدها وعاء فخاريًا واتجهت إلى حيث أعلمها الشيخ بوجود عين ماء وأخبرتها أنها ذاهبة، فهزت (ماني) رأسها بلا كلمات وهي تتابع (مير-يام) التي ملّت من صمتها فنهضت تجرجر دميتها خلفها!..

كان الوالدان مستريحان منذ وصولهما إلى فكرة الاستقرار وسط هؤلاء القوم، فقد كانوا أناسًا سمحين وأهل كرم، كانوا يعتمدون على صيد البحر في معيشتهم بشكل كبير، فاقترح الأب عليهم أن يقايضوا بعضًا من صيدهم الوفير هذا مع القبائل التي لا يمكنها الحصول عليه وتقوم في نفس الوقت بزراعة بعض المحاصيل فيحصلوا على بعضها

بدورهم، ولما لاقت الفكرة استحسانهم أخذ هو على عاتقه تنظيم تلك القوافل التجارية بحكم ما يمتلك من خبرة.

استيقظ (سنحوت) ليراها على جلستها تلك، فاقترب منها وجلس إلى جوارها مبتسمًا دون أن يتحدث، فوجدت نفسها تفيق من شرودها فجأة كأنما تذكرته الآن فقط وهي تسأله في شعور بالذنب: "يا عزيزي!.. لم أطمئن عليك حتى الآن!.. كيف حالك اليوم؟!.. أخبرني!..."

حرك ذراعه أمامها في مرح لم يخفِ ألمه وهو يخبرها أنه في خير حال وليس من السهل قتله، فرجته ألا يقول ذلك ثانية، ابتسم موافقًا وهو يلمح عينيها تغيمان مرة أخرى وهي تدعو الإله أن يحفظه لها، فسألها لم هي على تلك الحالة رغم أن الآلهة حفظتهم ونجوا مما كانوا فيه، فأخبرته أنها تحاول التخفف من شعورها بالذنب لما وصلوا إليه بسببها، لكنها لم تعتد بعد على فكرة التخلي عن كل ما فات من عمرها هكذا كأن لم يكن، ابتسم لها ابتسامة هزيلة بعض الشيء وهو يتناول كفها بين يديه ويطمئنها أن في استطاعتهما البدء من جديد سويًا.

استيقظ (محب) وحياهما مبتسمًا وهو يبحث عن (ددت) بعينيه فأخبرته (ماني) بمكانها، فنظر إليها هي و(سنحوت) لحظة، ثم قال ممازحًا وهو يتطلع إلى بيته الصغير الذي شيده استعدادً لزواجه هو و(ددت): "ألم تغارا؟!.. ألا تريدان بيتًا كهذا لكما وحدكما أيها الشابان الجميلان؟!.." فمال نحوها (سنحوت) يسألها في خبث ألا تريد ذلك، فابتسمت أخيرًا وهي تنهض متهمة إياهما بالعبث!..

كان (محب) قد بنى بيته بمساعدة (سنحوت) وأهل القبيلة، كما فضل والداه بناء البيت في منطقة أبعد قليلًا لبناء حانوت لتجارته إلى جواره، بينما بقى (سنحوت) يشارك الشيخ بيته – بعد استئذانه – ورفض أن يشيد له بيتًا خاصًا إلا حين يقررا الزواج هو و(ماني).

"لقد انتصف النهار وأنتما لازلتما تتسكعان.. " فوجئا بالأب أمامهما يقولها ساخرًا، مما جعلهما يصمتان تمامًا حتى تنحنح (محب) وقال إنه في طريقه لرؤية (ددت) وسينطلق بعدها من فوره للصيد، بينما نهض (سنحوت) ليتبعه إلى الحانوت في إحراج صامت!..

عند عين الماء، ابتسم (محب) في شوق فور أن رأى (ددت) وكذلك فعلت هي، لكن سرعان ما تغلب فضولها وهي تسأله إن كان يعلم سر انطواء (ماني) بهذا الشكل وشرودها الدائم، فتنهد هو وأجابها أنه ليس من السهل عليها إلقاء كل ما مضى من حياتها إلى غير عودة!..

"كل ما خطر لي أنها ربما قلقة بشأن (سنحوت) لعدم تحسنه كثيرًا منذ وصولنا إلى هنا!.." قالتها (ددت) في إشفاق، لقد كانت تعذر (ماني) في شعورها بالاغتراب هذا، بل في الحقيقة كانت تعذرهم جميعًا ربما لأنها كانت طوال عمرها تحيا بشعور الغريب الفاقد لهويته ولم تشعر بمعنى العائلة إلا حين تبعت (محب) إلى هنا!..

لاحظ (محب) شرودها والتماع الدمع في عينيها، فربت على كتفها باسمًا وهمس: "أنتِ لست وحيدة بعد اليوم.. أنا معكِ.." وحين تشبثت بكفه في قوة شعرت لأول مرة أنها تحيا!..

***

في جناحه الخاص بالسكن الملحق بمعبد (آمون)، استلقى الكاهن على أريكة حريرية قريبة من فراشه الوثير وأخذ يتابع الخيالات التي تتراقص

حول المشاعل الذهبية على الجدران وهو يرشف من كأس العرق الذي في يده بين لحظة وأخرى.

تطلع طويلًا إلى المبخرة النحاسية الضخمة التي تتوسط الجناح، حاول ارتشاف بعضًا من العرق لكن الكأس كان قد فرغ، فنهض ملقيًا به نحو الجدار ثم انهار هو على ركبتيه باكيًا وهو يشق قميصه بقوة، واقترب من المبخرة ليقبض عليها – رغم سخونتها – دافنًا وجهه في أدخنة البخور والعرق يتصبب من جسده شبه العاري إلا من سرواله من الكتان الشاحب.

كان يشعر بوخز مؤلم في كامل جسده وهو يفكر في (ماني) وفي تلك الآلام التي كان يعانيها لحرمانه من أن ينالها.. كيف جرؤت على تحديه بهذه الصورة؟!.. كيف هربت منه دون أن يروي ظمأه منها؟!.. بل كيف صبر عليها حتى هذه الدرجة؟!.. هل أحبها؟!..

"لاااااااا.." نهض صارخًا وهو يركل المبخرة بقدمه لتنقلب ويسقط من داخلها الجمر المشتعل، فأسرع واحد من الحرس إلى الداخل قبل حتى

أن يطلبه الكاهن، الذي أشار له أن ينظف المكان، واستدار نحو فراشه ليلقي بجسده فوقه وهو يسبل جفنيه للحظات!..

انتهت الجواري من تنظيف تلك الفوضى التي صنعها في الجناح وخرجن جميعًا إلا واحدة، حين تنحنحت في دلال لتخبره بذلك فتح عينيه بوعي غير كامل وهو ينظر نحوها قليلًا، ثم قام مترنحًا يدور حولها وهي تتمايل بحركات مثيرة - رغم أنها لم تجرؤ على رفع عينيها نحوه - بينما أخذ هو ينال ما ينال من جسدها بلمساته العشوائية، وأخيرًا توقف في مواجهتها ليرفع وجهها ممررًا أنامله الباردة على وجنتيها و..... "أرسلي إلى قصر الحاكم في طلب الحسناء البديلة.." قالها الكاهن في إثارة شديدة لا تتناسب وبرودة لمساته وهو يعود إلى فراشه مرة أخرى مترنحًا، فشعرت الجارية بالغيظ وهي تتظاهر بأنها تساعده في الوصول إلى الفراش بينما كانت تلصق جسدها بجسده كيفما اتفق وهي تكرر عليه أمره للتأكد من أنه يقصده، لكنه حين استلقى على الفراش عاجلها بضربة خفيفة على مكان ما في جسدها - لم يعيه وقتها – وهو يضحك في مجون ويكرر أمره متلذذًا بغيظها.

مد يده ليتناول شال (ماني) الملوث ببقع دمائه البنية وتشممه في شراهة هامسًا لنفسه: "عذرًا أيها العظيم (حابي)!.. لن يضيرك كثيرًا أن أنتزع منك حق الليلة الأولى!.."

***

شعر (محب) وهو في طريقه إلى الشاطئ ذلك اليوم بمشاعر مختلطة، كان سعيدًا بحق بعد تأثيثه داره الصغيرة استعدادًا لزفافه يوم غد على (ددت)، لكنه كان يشعر بحنين جارف لبلدته تحوّل في بعض اللحظات لحلم يقظة يرى نفسه فيه يزف إلى عروسه وسط أصدقائه وجيرانه داخل المعبد الذي ألف كل ركن فيه ونقش على بعض أحجاره قطعًا من أيام عمره!..

الذي لاحظه حقًا وكان على يقين منه هو اختفاء رجال القبيلة من على الشاطئ على غير عادتهم، فهم في مثل ذلك الوقت من اليوم يكونون قد سبقوه إلى هناك، وظل تساؤله حول ذلك يشغله وهو يُعدّ سنارته ويتوجه ليلقيها في البحر و..... فجأة شعر بشيء يجذب السنارة في قوة شديدة بمجرد أن لامست الماء حتى إنه لم يتمالك نفسه وسقط!

***

"والتف حوله الشباب بداخل الماء يمازحونه بعد أن كشف خدعتهم..." قالتها (رحبو) التي دعت كل نساء القرية إلى منزلها للاحتفال بحناء (ددت) وهي تقص عليهن ما رتبه الشباب للاحتفال بـ(محب) أيضًا. أخبرتهم أنهم اختفوا جميعًا بالقرب من الشاطئ وانتظروا وصوله كي يجذبوه إلى البحر ليستحم كأي منهم قبل زفافه، وحين تساءلت (ماني) في دهشة كيف يتحممون بماء البحر المالح ضحكت (رحبو) وأخبرتها أنهم لا حيلة لهم في ذلك وهم لا يملكون مياهًا عذبة سوى مياه الأمطار، ويكونان زوجان محظوظان من يرسل لهما (تحوت) المطر في أيام زفافهما، وأشفقت (ماني) حقًا على (ددت) التي لم تتوقع أن يكون حمام عرسها بالماء المالح!..

وانخرطن جميعًا في التلهي بالغناء واللعب على الدفوف، بينما استسلمت (ددت) ليد تلك المرأة البدوية المسنّة التي أخذت تزين كفيها وقدميها بنقوش رقيقة بالحناء، هي وبعض من الفتيات الصغيرات، والتفتت تسأل (رحبو) بعد لحظة عن سبب غياب الرجال إذن طوال اليوم بالخارج، فأخبرتها أنهم يحتفلون على طريقتهم بـ(محب)، يلهون ويتسابقون أو يتبارون فيما بينهم، وفي نهاية اليوم سيتوجهون معه إلى داره ليستعد ويتزين.

ابتسمت أم (محب) وهي تربت على كتف (ددت) وتمنحها قرطًا صغيرًا من الفضة، أخبرتها أنها كانت قد صنعته خصيصًا لعروس (محب)، فضمتها (ددت) وهي تشعر لأول مرة منذ سنوات بمثل ذلك الدفء!..

كن جميعًا سعداء فرحات، لكن جل ما أضحكهن حين تسللت (مير-يام) بين المرأة المسنة وبين أمها (رحبو) وهي تمد إليها يدها وتقول: "أريد ان أتزوج.." ولما سألتها (ماني) لم تريد الزواج وهو سيجعلها تكف عن اللهو واللعب فكرت قليلًا كأنها تراجع نفسها إن كان الأمر سيتطلب التوقف عن اللعب وقالت إنها ترغب فقط في وردة كبيرة من الحنّاء على كفها كالعروس!

وفي مساء اليوم التالي، بين جنبات معبد (آمون) الصغير في القرية تم زفاف (محب) و(ددت)، التي نقشت على كفها وردة كبيرة من الحناء، وفي عمق قلبها دقت وشمًا دافئًا لصورة (محب) الذي ملأ كل الفراغات الباردة فيه!..

***

أشرقت الشمس حارة في ذلك اليوم على ديار القبيلة لكنها كانت ذهبية سعيدة، حيث استقيظ الجميع يتحاكى عن ليلة زفاف (محب) و(ددت) بالأمس وكيف كانا سعيدين، وكيف كانت ليلة عجيبة اجتمعت فيها عادات الزفاف البدوية والمصرية معًا!..

كانت (ماني) تجلس أمام دارهم عندما لمحت (سنحوت) آتيًا نحوها مبتسمًا فابتسمت، جلس بجوارها وهو يمسك بيدها قائلًا: "العقبى لنا يا عزيزتي.." ولأول مرة لا تهرب من نظراته في خجل، بل تمسكت به أكثر وهمست له أنها أصبحت تتمنى ذلك أكثر من ذي قبل، لكنها تشعر بمانع ما يحول دون إتمام زفافها الآن وإن كانت لا تدري ما هو، هز كتفيه مفكرًا للحظة ثم أخبرها أنها ربما تشعر بهذا لأنهم في ديار غريبة لم تعتدها بعد!..

"ربما.." قالتها هي وصمتت، وظلا على صمتهما للحظات حتى أخبرها أن هناك فكرة تطارده منذ اليوم الذي خرجوا فيه من البلدة، فهو دائمًا يتساءل ماذا لو لم يهربوا وحاولوا مقاومة ظلم ذلك الكاهن، أكان من الممكن أن ينجحوا؟!.. ارتفع حاجباها في دهشة وهي تسأله هل يعتقد حقًا أنهم يستطيعون ذلك وحدهم، فأشار بإصبعه مؤكدًا أن تلك هي

النقطة.. أنهم كانوا وحدهم!.. أجابته في سرعة: "ما كان أحد ليساندنا.. الكل يخاف على نفسه وذويه!.." فقال: "وهذا ما يؤرقني.. الخوف!.."

خرج الأب في تلك اللحظة طالبًا من (سنحوت) أن يبكر عنه إلى الحانوت وهو سيلحق به، وبينما رافقته هي في طريقه تابع حديثه الذي كان يدلي لها به منذ لحظة، أخبرها أنهم لم يكن أمامهم حينها إلا أحد أمرين، إما أن يهربوا من بطش ذلك الرجل أو أن يستسلموا لإرادته فـ.....

وصمت كأنه يرفض حتى تصور العاقبة فأجابته هي أنهم بالفعل لم يكن أمامهم حل آخر، لكنه فاجأها إذ قال: "بل كان هناك.." ومع نظرات دهشتها تابع قائلًا إن هناك حلًا ثالثًا لم يخطر بباله قبل هذه الأيام، فلم يخطر ببالهم أن يدافعوا عن أنفسهم دون الهروب من المواجهة، هتفت في استنكار مكررة كلمة "مواجهة" وهي تتساءل دون انتظار جوابه عمن يكونوا حتى يواجهوا ذلك الطاغية؟!..

"هذا ما أقصد تمامًا.."

"لم أعد أفهمك!.."

أخبرها أنهم لا يزالون هو وهي وأسرتها كلها أشياء ضئيلة لن تكون سوى أثرًا في مواجهة ذلك المستبد، لكن الأمر ليس بالمثل إذا أخذوا في

اعتبارهم البلدة بأسرها وبكل أهلها، لكنها رفضت ما يفكر به وهي تؤكد أنه لم يكن بيد أحدهم شيئًا سوى الشكوى إلى الحاكم الذي لا يأتمر بأمر فرعون بل بأمر كاهن (آمون)، لذلك رأت أن النتيجة في النهاية واحدة، لكنه رفض ما تقول بشدة، وقال لها إنه لا يتحدث عن الشكوى لأحد بل يتحدث عن موقف يتخذه الجميع – بكل ما في كلمة "الجميع" من أحرف ومعانٍ – موقف يبدل ما يحييونه من ظلم، وقبل أن تجيبه كانا قد وصلا إلى الحانوت القريب ووجدا الشيخ يقف عنده باسمًا وملقيًا السلام عليهما، فأجاباه دون أن يزول عن (سنحوت) تفكيره العميق، أو عن (ماني) قلقها من طريقة حديثه التي تراه يتحدث بها لأول مرة!..

بقي الشيخ متطلعًا نحو (سنحوت) بنظرة ذات مغزى ثم قال في هدوء: "إن الوقت الآن مناسب تمامًا لما تفكر فيه.." فتطلعت (ماني) لهما في ترقب صامت بينما انتبه (سنحوت) بكل حواسه لما قاله الشيخ وهو يسأله عما يعني، لكنّ الشيخ تجاهل كل هذا وهو يقول لهما إن بقاءهما هنا قد طال، وهو ينتظر بين لحظة وأخرى خبر زواجهما، فماذا ينتظران وقد سبقهما (محب) و(ددت)؟!..

عاود (سنحوت) السؤال عما يقصده الشيخ بأنه الوقت المناسب، فابتسم الشيخ وقال له ألا يسأل عن شيء قد يبينه له الزمن سريعًا، فإدراك الشيء أفضل من معرفته هكذا، ونظر إلى (سنحوت) يسأله: "أليس كذلك؟!.." فابتسم هو بعد تفكير مجيبًا: "نعم يا شيخنا.. كما تريد.."

وفجأة اندفعت (ددت) نحوهم صارخة: "أدركوا (محب).. أدركوه!."

***

جثى (أوناس) على ركبتيه منهارًا وهو يرى النيران تلتهم بيته ويتسلل إلى سمعه أصوات صراخ زوجته وولده، تجمع الأهالي من حوله يشاهدون الكاهن وهو يدور حوله ضاحكًا في جنون، لكنّ أحدًا منهم لم يجرؤ على فعل أي شيء كالعادة!..

كان صراخهما يمزقه لكنه فقد القدرة حتى على إنقاذهما، كان مرتميًا أسفل قدمي الكاهن شبه مشلول، لم ينجح أبدًا في إنقاذ أحب مخلوقين لديه في الدنيا!..

***

في (أبيدوس)..

حاول كاهن البلدة قطع ممرات معبد (آمون) الملتوية في سرعة، كان يملأه الفضول لمعرفة سر استدعائه لمقابلة كبير الكهنة، لقد علم أن حسناء بلدتهم هي من اختيرت عروسًا لـ(حابي) هذا العام وإن كان الخبر لم يعلن بعد، لكنّ هذا لا يعني أو يستدعي أن يأمر كبير الكهنة بمقابلته شخصيًا في لقاء منفرد بعيدًا عن باقي الكهنة والاحتفال الذي أتوا جميعًا لحضوره!..

"ما هذا الذي تفعله أيها الكاهن؟!.." انتفض الكاهن إثر سؤال كبير الكهنة له، رغم أن صوته كان هادئًا إلى الحد الذي جعله يسمعه بصعوبة، ومع ذلك انحنى في زاوية شبه قائمة مع تقدم كبير الكهنة نحوه في بطء وقال: "سيدي.." ظل الكبير ينظر نحوه للحظة ثم لكزه بالعصا الذهبية التي يتكئ عليها ليعتدل، ففعل وهو يسأله في خفوت عما يقصد، جلس الكبير على مقعده الوثير يتفرس في ملامح الكاهن الشاحبة الآن كثيرًا وهو يشير لأحد الحراس الذي انحنى وخرج على تلك الانحاءة، بينما أشار له بالجلوس وأخبره أنه سيرى الآن ما يقصده.

جلس وهو معلق بصره بالباب في فضول ومتلافيًا نظرات الكبير، وفي اللحظة التي آلمته فيها عضلات رقبته ليدير رأسه نحو الأرض عاد الحارس ومن خلفه شخص ما وهو يستأذن له في الدخول، لم يتمالك الكاهن دهشته حين أعطى الكبير إذنه للقادم بالدخول، إنها تلك الفتاة التي.....

"ألم تتعرفها أيها الكاهن؟!.." قطع الكبير أفكاره بهذا السؤال وهو يتطلع نحو الفتاة التي وقفت منحنية حتى أشار لها برفع رأسها والاقتراب ففعلت وهي تتساءل في هلع لو كانت ارتكبت خطأ ما، وحين نفى الكبير ذلك كادت أن تنهار حين خطر ببالها فكرة أن تكون هي عروس (حابي) المختارة في النهاية!.. كان الكاهن على يقين أن تلك الفتاة تحدثت بشيء ما لكنه لم يستطع التكهن به، ولم يكن في مقدوره سؤال الكبير أمامها عن علاقتها باستدعائه للقائه.

تجاهله كبير الكهنة تمامًا وهو يتحدث بنفس الخفوت الرهيب إلى الفتاة، أخبرها أن الإله "حابي" قد اصطفاها من دون كل فتيات الوادي عروسًا له، وحين انهارت الفتاة بالفعل وأخذت تبكي بشدة أخبرها أن الآلهة أرسلت لها البشرى والإشارة لكنها لم تعها حين هربت

الفتاة (ماني) - تلاحقها لعنات الآلهة - ثم وقع اختيار كاهن بلدتها عليها هي عوضًا عنها، وأخيرًا حين باركها بجسده المقدس عشية سفرها إلى (أبيدوس)، لو كانت فتاة مؤمنة حقًا لتوقعت أنها العروس المختارة، بل لتمنت ذلك. لحظتها تطلع إليه الكاهن بطرف عينه لا يدري ماذا يدور في رأسه المعتم!..

"كان يجب أن تختفي تلك الفتاة بعد أن فقدت كثيرًا من حرصك أيها الكاهن!.." بادره بها الكبير بعدما خلا المكان تمامًا إلا منهما حين اصطحبت الجواري الفتاة المسكينة إلى الخارج، وأكمل دون أن ينتظر ردًا منه أنه يعلم بكل ما حدث في الشهور المنقضية، في البداية وصلته أخبار هروب حسناء بلدته الأولى وحين تتبع الأمر علم بالأسباب، ووصله أن الكاهن تمادى كثيرًا في انتقامه الحاقد بشكل قد يهز مكانة كهنة (آمون)، وحين وصلت الفتاة الأخرى إلى (أبيدوس) علم بما كان منه في آخر ليلة لها في بلدتها، لذا كان عليه استدعاءه لأنه فيما يبدو قد نسي أو تناسى مواثيق المعبد!..

كان الكاهن يستمع لحديث كبيرهم وهو محني الرأس مما زاد من احتقان وجهه، وتساءل في نفسه كيف غاب عن ذهنه أن أمره سيصل

إلى كبير الكهنة بأي حال، لكن تفكيره لم يسعفه بإجابة عن تساؤله كما لم يسعفه منذ شهور بتوقع العواقب، ولا يسعفه أيضًا الآن بالرد، فظل صامتًا!..

"بم تأمرني سيدي؟!.." قالها الكاهن وهو يرفع رأسه مواجهًا الكبير في برود هذه المرة، تجرأت نظراته وبرد توتره حين لمعت في ذهنه فكرة أن كثيرًا من الكهنة – إن لم يكن جميعهم – يأتون بأفعال لمصالحهم الخاصة فقط، فليتمسك إذن بحقه المكتسب طالما يؤدي واجبه نحو المعبد كاملًا، لكن كبير الكهنة هدم ثقته الزائفة تلك حين علا صوته فجأة في صرامة كأنما استمع لما يدور في ذهنه وقال: "لست أمنع أيكم عن مصالحه الشخصية وأهوائه أيها الكاهن.. لكن دون أن يؤثر ذلك على هيبة ومكانة المعبد بين الرعية.. أتفهمني؟!.."

نكس الكاهن رأسه وأجاب: "نعم سيدي.. يمكنني التوقف عن تتبع الفتاة الهاربة وأعفو عن الحارس الذي....." لكن الكبير قاطعه في حزم قائلًا: "على العكس.." فنظر له الكاهن محاولًا الاستيعاب بينما يخبره الكبير بأن عليه إعلان عفو الآلهة عن الفتاة الهاربة، وفي نفس الوقت عليه معاقبة المسئول عن هروبها أقسى عقاب لأنه لم ينفذ أوامر

كاهن (آمون) بدقة كافية، كما عليه ألا يرحم من يُقصّر في طاعة وخدمة معبد (آمون)، وسأله: "أهذا كافٍ ليطفئ نيران انتقامك أم تحتاج لإحراجنا أكثر مما فعلت أيها الكاهن؟!.." وربما كانت المرة الأولى التي يشعر فيها الكاهن بمعنى القهر!..

***

خرج (محب) إليهم فأسرعوا جميعًا نحوه وكان (سنحوت) أول من سأله: "كيف حاله الآن؟!.."

ارتشف بعض الماء من الجرة التي ناولتها له (ددت) وأجابه أنه بخير ونائم الآن، وحين سألته (ماني) هل حقًا يعرفه، أجابها بأنه كان أحد زملائه من حراس القصر ويدعى (أوناس)، لذا كان من الطبيعي أن تتساءل كيف وصل إليهم ها هنا وإن كان يتبعهم منذ خروجهم أم ماذا؟!..

" لم يقل الكثير!.." قالها (محب) بينما تابعت (ددت) أنه أمر طبيعي مع الحال التي وصل عليها، وحاولت (ماني) أن تهدأ قليلًا وهي تتذكر كيف

أتت (ددت) فزعة تطلب نجدة أخيها، فظنوا حينها أن مكروهًا أصاب (محب) ولم يتصوروا أبدًا ما جرى!..

كان (محب) و(ددت) عند عين الماء منذ بزوغ الفجر في انتظار مشاهدة أول شروق لهما سويًا، حين لمحا رجلًا يظهر فجأة من خلف إحدى التبات الرملية وكان (أوناس) بالطبع، كان شبه محموم ويكاد يفقد وعيه من شدة الوهن، وبالفعل سقط فاقدًا للوعي فور أن رأى (محب)، ولذلك أسرعت (ددت) إليهم تستنجدهم، لكن المحير حقًا تلك الكلمات التي أخذ يرددها منذ لحظة فقدانه للوعي وحتى الآن، فقد كان يتحدث حول اثنين وقع لهما أمر يحزنه، المؤكد أنه أمر بالغ السوء للدرجة التي جعلته يهرب وعيه به إلى الحمى!..

تدخل الشيخ الذي ظل صامتًا طويلًا وقال: "يبدو أن هناك ما يحدث في بلدتكم.." فالتفت إليه الجميع في صمت دون أن يجيب أحدهم، حتى بعد أن أتت الأم حاملة وعاءً من الماء وناولته لـ(محب) وطلبت منه أن يقوم بعمل كمادات باردة لصديقه عسى أن تساعد في علاج الحمى، حمل (محب) الوعاء عن أمه وعاد إلى الداخل بجوار (أوناس)،

بينما اقتربت (ددت) من (ماني) ونظراتهما تعكس أن كلتاهما تفكران في نفس الأمر، أمن المعقول أن تكون تلك مجرد مصادفة؟!..

***

فتح (محب) عينيه فجأة على صوت همهمات (أوناس) غير المفهومة، كان قد أرسل (ددت) للمبيت عند أهله وقرر أن يتناوب هو و(سنحوت) السهر عليه، أسرع إليه يتفحصه بينما كان (سنحوت) غافيًا بجواره وقد بدا عليه أنه نعس رغمًا عنه، فمال نحوه (محب) ليسمعه يقول: "أريد.. بعض المـ...ـاء..."

أسرع (محب) يسقيه رشفات قليلة من الماء، وهو يدعو له بالشفاء بعد أن مرت ليلتين وهم جميعًا في انتظار تحسن حالته دون فائدة.

لم يستطع أن يفارقه للحظة حتى بعد أن بدأت تزول عنه الحمى، وأصر ألا يفعل حتى يسترد وعيه بالكامل، مال عليه يسأله عن حالته الآن فلم يجبه إلا بصمته ودموعه المنسابة في غزارة، فحاول (محب) أن يهدئ من روعه بينما استيقظ (سنحوت) حينها فزعًا يسأله ماذا به؟!..

"لا أعلم ما باله الآن!.." أجابه (محب) بينما اتجه (سنحوت) إلى (أوناس) يسأله لو كان يتألم مجددًا، فتمتم في وهن أنه لا يوجد أي ألم يمكن أن يصف ما يشعر به، ولا توجد كلمات يمكن أن يخبرهما بها ما حل به، لقد فقد حياته دون أن يستطيع فعل أي شيء.. فقدهما ولم يستطع أن ينجيهما.. كان قد فات الأوان.. كانا قد ذهبا إلى الأبد!..

وحين حاول (محب) استنطاقه عمن يكونان تمتم صارخًا في ألم: "عنهما.. عن ... " وغاب عن وعيه مرة أخرى، بينما ظل هو و(سنحوت) يتبادلان النظرات في فضول، وتردد قول الشيخ في رأسيهما معًا "هناك ما يحدث ببلدتكم .." يبدو بالفعل أنه كان على حق، لكن إن كان هناك ما يجري هناك في الوادي فما هو يا ترى؟!.. ما الذي يحدث في واديكِ يا مصر؟!..

***

في صباح اليوم التالي، غادر (أوناس) بيت (محب) لأول مرة بعد أن استردّ وعيه أخيرًا، جلس في ساحة الدار والتفّ الجميع من حوله، بينما بادره (محب) بأنه من الأفضل أن يقص هو عليهم الأمر كيفما يروقه لأن تساؤلاتهم كثيرة جدًا. تطلع إليهم (أوناس) في وهن صامت

للحظات، ثم قال إنه لا يمتلك الكلمات التي يمكنها صياغة ما حدث، في تلك اللحظة خرجت (ددت) من البيت حاملة له بعض الطعام وقالت لهم أن يتركوه على الأقل لتناول بعض الطعام، شكرها وهو يحمل عنها حملها ليضعه أرضًا ويخبرها أنه ليست به رغبة في الطعام..

"يجب أن تتناول أي شيء ليسد رمقك يا ولدي.." قالتها الأم ووضعت الطعام مرة أخرى بين يديه، فدمعت عيناه وهو يخبرهم أنه لم يكن يتناول شيئًا إلا من يديها، ثم نظر في شرود إلى الأفق وتساءل لم يحرص على حياته بعد أن ذهبا وتركاه وحيدًا؟!.. ربت الأب على كتفه وهو يشجعه على التحدث ليلقي حمله عن كاهله، وسألته الأم عمن يقصد، فقال أنهما زوجته وولده وبعد فقدهما لم يعد باقيًا لحياته معنى.

سألته (ماني) عن كيفية حدوث ذلك، فتنهد في حرارة وهو يقص عليهم كيف بدأ كل شيء بعد هروبها من القصر، في البداية قام الكاهن باختيار فتاة أخرى كحسناء للبلدة، كانت تقريبًا طفلة لم تتخطَ الرابعة عشرة، والمدهش أنها هي بالفعل من اختيرت عروسًا لـ(حابي). ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بالطبع، لقد ازداد طغيان الكاهن بشكل رهيب، وبدأ يعامل الأهالي كعبيد له وليس كرعايا لـ(آمون)، كان يتصيد لفلاحي المعبد الأخطاء أو يلفقها لهم ويجازيهم عنها أبشع

الجزاء، أو يسخر غيرهم المزيد من أهالي البلدة لزراعة أراضي المعبد دون أن يعبأ كثيرًا ببوار زراعتهم الخاصة. كم من بريء أمر بجلده وصلبه تحت الشمس أيامًا - أمام أهله وأبنائه– حتى تأكل الديدان من جروحه وهو حي، وكم من سيدة أو فتاة أخذها عنوة - رغمًا عن ذويها - بحجة أن المعبد في حاجة لخدمتها، وبعدها لا تخدم إلا أهواء كاهنه المريضة على مرأى ومسمع الجميع ودون محاولة للتستر على عُهره، متعللًا هنا بأن (آمون) يأمرها بإرضاء جسد الكاهن المقدس، وأن ذلك واجب عليها يندرج تحت خدمة (آمون) وعليها طاعته!...
تمتمت (ددت) في ألم: "إن ما تقوله بشع يا (أوناس)!.." أما (ماني)، فكان يقتلها شعور بالندم أن يحدث كل هذا بسبب هروبها، وعلق (سنحوت) في ضيق بأن ما يفعله الكاهن في بلدتهم ليس بسبب هروبهم، بل ربما كي لا يفقد سطوته التي من المؤكد تأثرت بعدها، فبكت هي متسائلة ما الفرق بين هذا وذاك، في كل الأحوال الأمر كان بسببها!..

"حديث (سنحوت) أقرب للمنطق لأن الكاهن أعلن عفو الآلهة عنكِ وعن أسرتكِ.." قالها (أوناس) فسرت همهمات بينهم جميعًا تردد كلمة "عفو" مع الكثير من الذهول، أخيرًا سأل (محب) كيف يتفق ذلك العفو وما يفعله الكاهن في بلدتهم، بل كيف تم العفو عنهم من الأساس، فتحدث الشيخ – الذي مر بهم منذ لحظات ومكث للاطمئنان

على (أوناس) – وقال إن غضب الكاهن من هروب (ماني) كان مضاعفًا، غضبًا لأنه لم ينل مأربه منها، وآخر لأن مكانته اهتزت– وربما مكانة عقيدة (آمون) بأسرها - في أعين البسطاء، ولأن تلك العقيدة هي الثوب المقدس الذي يأتي من خلفه الجميع بكل أغراضهم مستترين بنقائه، كان أمرًا طبيعيًا ما يحدث في البلدة الآن بقصد التلويح لمن لا يطيع أوامر المعبد بأبشع الجزاء، وتختلط إرادة الآلهة، بالأغراض الخاصة لكهنة المعبد، بأطماع الكهنوت ونفوذه وسطوته في مقابل نفوذ وسلطة الأسرة الحاكمة، كأنما هي مباراة يتنافسان فيها متناسيين أنهما يقتسمان خدمة هذا البلد الذي لا يتحمل فيه البلاء سوى أهله!..

ساد الصمت للحظات بعدما قاله الشيخ ووجم الجميع في أسى وكل منهم يفكر على غير هدى، حتى عاد الشيخ وقال: "في الحقيقة جميعكم السبب فيما يحدث!.." وهنا انفعل الأب وسأله هاتفًا كيف يكونوا السبب وهم من ضمن ضحايا تلك الحلقة العقيمة من الاستبداد، فقال أن كل من ترك ذلك الطاغية يفعل ما تبدى له هو في حقيقة الأمر مسئول عما حل به من ظلم، وحين اعترض (محب) بقوله إنهم لم يسمحوا له بالنيل من (ماني)، فأجابه (سنحوت) في مرارة: "نعم.. ابتعدنا عن الشر وغنينا له.." لقد فضلوا الهروب بأنفسهم دون النظر

لحال غيرهم وما قد يحدث لهم، دفنوا رؤوسهم في رمال الهروب دون أن ينتبهوا إلى أن ابتعادهم عن عدوى القهر لا تعني القضاء عليه!..

هنا سألت (ددت): "لكنك لم تخبرنا بعد ما الذي حل بك يا (أوناس)؟!.." تنهد وشرد قليلًا ثم أيد ما قاله الشيخ، لقد كان من الواضح جدًا أن الكاهن لا يهدف إلا للحفاظ على هيبته وجبروته أمام أهالي البلدة، فبعد أن أمر بمعاقبة (رام) لهروب (ماني) أثناء نوبة حراسته، ثم اختياره حسناءً بديلةً، أمر بإحراق منزل أسرة (محب) وحانوت والده، وتوعد من يحاول مجرد إخماد الحريق بالسجن والتعذيب، بعدها سافر إلى (أبيدوس) لحضور أعياد (حابي)، وعاد حاملًا خبر العفو عن (ماني) وأسرتها والسماح لهم بالعودة إلى البلدة!..

"بالطبع كنا نحن الحرس رهن إشارته وأوامره السادية البشعة أيضًا!.." اختنق صوت (أوناس) وهو يقولها، واصفًا بعضًا من صنوف العذاب التي كان يأمرهم الكاهن بإتيانها في حق البسطاء دون ذنب أو ذريعة، لكنهم لم يحتملوا ذلك طويلًا وبدأ البعض منهم في الاعتراض، وكان هو وزميلان آخران له أول من فعلوا، خاصة بعدما علموا من أمر (رام) الذي كان قد اختفى بعدما أمر الكاهن بمعاقبته، فلم يعرفوا مكان حبسه حتى!...

سأله (محب): "وما الذي حدث له؟!.." فنظر له (أوناس) للحظة ثم أخبره أنه علم ما حدث له بطريق المصادفة، لقد لاحظ الجميع اختفاءه تمامًا بعد أمر معاقبته ولم يدر أيهم ماهي عقوبته التي أمر بها الكاهن، وفي أحد الأيام ذهب (أوناس) وزميلاه اللذان ذكرهما إلى السجن لتفقد أحوال السجناء، حينها سمعوا من أحد الحراس عن سجين ملقى في زنزانة فردية يحمل مفتاحها الكاهن وحده ولا أحد يدري من هو وما حالته، وقد دفعه الفضول ساعتها للتحدث معه حتى ولو من خلف قضبانه، وحين فعل عرف أنه (رام) الذي تعرف عليه بدوره، لكنهما أخفيا الأمر عن الحارسين الآخرين كما فهم من تلميح (رام) الذي كان يخشي عليهم من بطش الكاهن. كانت حالته بائسة وملامحه التي كادت تختفي خلف بقايا الدماء المتجمدة على جروحه والكدمات التي أحالت جسده ووجهه لشبح إنسان!..

بعدها رفض (أوناس) وزميلاه الاستمرار في الانصياع لأوامر الكاهن الشاذة ثانيةً، وكان أمرًا طبيعيًا أن يأمر بمعاقبتهم جميعًا لرفضهم تنفيذ أوامر (آمون) الذي لم يعد يدري أهو إله حقًا أو واحد من شياطين الجحيم ليرسل لهم ذلك الوحش متحكمًا بمصائرهم، بعدها قُتل زميلاه وتم التمثيل بجثتيهما بأبشع الوسائل، واكتشف (أوناس) أن الكاهن يعلم بأمر معرفته بحقيقة ما وقع لـ(رام)، فجاء دوره في الانتقام!.

"يا أيتها الآلهة.. ماذا حدث أكثر من ذلك يا ولدي؟!.." سألته الأم وهي تربت على كتفه في حنان، فتمسك بكفها كطفل كبير وأخبرها أنه كان في ذلك اليوم قد بكّر في الذهاب إلى مرسى القوارب باحثًا عمن يقلهم هو وزوجته وولده خارج البلدة هربًا من مصيره المجهول، وحين عاد لإحضارهما وجد منزله تأكله النيران، وانهار باكيًا مرة أخرى وهو يختتم قصته قائلًا: "صراخهما كان يمزقني.. حاولت إنقاذهما.. أقسم أني حاولت.. لكني كنت كالمشلول أشاهد فقط!.."

نهضت (ماني) في وجوم ونظراتها مثبتة نحو الفراغ دون أن تنطق بحرف واحد، سارت مبتعدة قليلًا حتى انتحت جانبًا أسفل الشجرة كعادتها، وقبل أن تجلس هناك استدارت نحوهم تترنح قائلة:

" لا أحد يخبرني بعد الآن أنه ليس ذنبي!.." وسقطت فاقدة الوعي!..

***

أسندت ظهرها إلى الشجرة واحتضنت ساقيها متلفتة حولها في رهبة، كانت الرمال أسفلها ساخنة بشدة رغم أنهم في منتصف الليل لكنها لم تمتلك القوة حتى على النهوض من مجلسها، لقد بدأت تشعر أن هناك شيئًا ما يكبل قدميها إلى الرمال وظهرها يلتصق تمامًا بجذع الشجرة!..حاولت أن تصرخ لكنّ صوتها خرج كمن تحاول التحدث

أسفل الماء، بل إنها شعرت ببلل ملابسها بالكامل رغم أنها مقيدة بطريقة ما إلى رمال الصحراء!.. أما من أحد هنا يمكنه أن يسمعها؟!.. أين ذهب الجميع؟!.. حاولت أن تصرخ منادية أحدهم بلا فائدة.. هي ترى دار الشيخ في وضوح فربما استطاع سماعها.. لكن الدار معتمة تمامًا!.. إذن هو ليس مستيقظًا من الأساس!!..

فجأة بدأت ترى أطيافًا تتحرك حولها هنا وهناك، كُن فتيات يدُرن حولها بسرعة لا تسمح لها برؤية ملامحهن، ويطلقن صراخًا حادًا يخترق أعصابها في ألم، لهن أطراف ملساء تجذبها إلى جذع الشجرة أكثر وتغوص بها في الرمال أكثر فأكثر، وشيئًا فشيئًا بدأ صراخهن يعلو ويزداد حدة وتزداد هي تألمًا من هتافهن: "خائنة.. خائنة.." فهتفت بهنّ هي الأخرى: "لست خائنة.. أنا لستـــــ....."

وفجأة انسابت أطراف (ماني) لتتحرر من قيودها وهي تستيقظ على فراشها وتتطلع حولها في ذهول، وبينما حاولت أمها تهدئتها همست هي: "لست خائنة يا أمي.. أنا لستـــ...." وابتلعت باقي عبارتها مع دموعها الغزيرة!..

***

انزوت على فراشها في خوف وضمت طفلها الصغير إلى صدرها في قوة، وتطلعت إلى جدران تلك الغرفة التي احتلت ركنًا منعزلًا داخل السكن الملحق بالمعبد بعد أن أضحت غرفتها منذ فترة ليست بالبعيدة. كانت كل مساء تدعو الآلهة ألا يتذكرها الكاهن عند عودته إلى السكن، وسكره اليومي كان دائمًا يساعدها في تحقيق هذه الأمنية، لكن في تلك الليلة انتفضت مستيقظة على صوته المرتفع وهي تشعر بخوف أكبر من كل ليلة، فحاولت أن تتلهى بمداعبة طفلها إلا أنه كان قد سكن بين ذراعيها في وداعة مستسلمًا للنوم.

تساءلت - مع صوت تلك الخطوات التي تقترب من غرفتها – هل حقًا من يخاف عفريتًا عليه مواجهته، وفي أقل من لحظة وجدت الكاهن يقتحم غرفتها وقد استحال شكله ما يقارب وصف العفريت تقريبًا، ألجمها الخوف وهي تراه يترنح أمامها بنظراته الغاضبة بلا سبب، وهو يحمل السوط بيد وبالأخرى يحمل قنينة خمر صغيرة و....

"لو لم يحضرها إلى هنا.. تحت قدميّ.. سأقتله وأقتلك وقبلها سأجعلك تشاهدين طفلك هذا يلفظ أنفاسه الأخيرة أمام عينيك.." قالها الكاهن وهو يمرر طرف السوط على وجه الطفل ويضحك بلا سبب، وقال إنه لا يعلم إلى الآن كيف سيقتله وأنه سيفكر في وسيلة في حينها، فأخذت تبكي في شدة وهي تضم الطفل أكثر، ويبدو أنه انزعج من

صوت بكائها للدرجة التي جعلته يرتفع بالسوط في هواء الغرفة عازمًا على إسكاتها، فأدارت له ظهرها لتقي طفلها أي ضربة عشوائية!..

ظل الكاهن يضرب بسوطه في الهواء لتتلقى هي أغلب الجلدات على ظهرها وهي تكتم صرخاتها في قهر وألم، ولكنه توقف فجأة فاستدارت في حذر تنظر نحوه لتجده قد ألقى السوط من يده واستلقى على الأريكة المقابلة لفراشها يجرع بعضًا من خمره، فاغمضت عينيها تلتقط أنفاسها قليلًا..

كانت ترتجف بردًا بعد أن تمزق ثوبها تقريبًا والدماء تسيل على ظهرها، وشعرت بأنها قاربت على فقد الوعي حين اقترب منها الكاهن يتلمس ظهرها في بطء، وضعت الطفل في ركن الفراش دون أن تحاول رفض لمسات الكاهن أو حتى الاستدارة نحوه، وحتى تتأكد من أن طفلها بعيد عن مرماه استدارت إليه لتسقط جسدها أسفل قدميه بالقرب من الأريكة، وبالفعل تحول نحوها متناسيًا الطفل بل وجلس أرضًا إلى جوارها وهو يداعب جروحها في تلذذ مريض أرجفها، ثم مزق ثوبها تمامًا وجذبها نحوه وأخذ يلعق جروحها مطلقًا همهمات شبق سادية و..... فقدت وعيها!..

***

"لقد رأيتهنّ!.." قالتها (ماني) للشيخ الذي جلست معه أمام داره وهي تحملق في كفيها بعينين مرهقتين، فربت هو على كتفها وسألها عمن يكنّ، فقالت أنها لا تعرفهنّ لكنها تعرفت عليهنّ في حلمها، لقد كنّ الفتيات اللاتي من المؤكد سقطن في براثن ذلك الكاهن، وجميعهن صرخن فيها بأنها خائنة، وهي تشعر بأنها كذلك لأنها نجت بنفسها فقط!..

"(ماني)!.." التفتت لتجده (سنحوت) الذي استيقظت توًا ومن خلفه (محب) و(أوناس)، وقد ارتسمت الدهشة على وجوههم جميعًا إذ يرونها هنا في تلك الساعة المبكرة وعلى تلك الصورة. بعد لحظات كانوا قد فهموا ما ألمّ بها، فانفعل (محب) قائلًا إنهم لم يخطئوا حين دفعوا الظلم عنهم، فأجابته بأنهم لم يدفعوه عنهم، لقد هربوا منه فقط وتركوه يلتهم أهل بلدتهم الأبرياء!..

"أريد أن أعترف لكم بشيء.." قالها (أوناس) وهو يجلس قبالة (ماني) ويدير عينيه في وجوههم جميعًا، فهز الشيخ رأسه وسأله لو كان يقصد أنه تعمد أن يتبعهم إلى هنا، ألجمت الصدمة لسان (أوناس) للحظة ثم أخبرهم أن ذلك صحيح وأنه حين هرب من البلدة تعمد أن يتتبع طريق سفرهم، وحين اطمأن لوصوله إليهم انهار جسده المنهك أخيرًا!..

صمتوا جميعًا وهم يتطلعون له في توجس، بينما سأله (محب) في تحفز عن السبب وراء تتبعهم، فأسرع يخبره أنه أقسم ألا يترك حق زوجته وولده، لكنه فرد وحيد لا يجرؤ أحد على مساندته، تمامًا كما حدث مع (ماني)، ففكر لو استطاع الوصول إليهم قد يكونوا عونًا له!..

عادوا للصمت مرة أخرى، و(ماني) تنقل بصرها بينه وبين (سنحوت) - الذي أخذ يفكر شاردًا - وتذكرت حديثه الأخير معها، بينما انفجر (محب) في وجه (أوناس) ثائرًا وهو يحذره من تبعات ذلك الجنون، وأخبره أنه لن يضحي بـ(ماني) أو بأي من أفراد أسرته بعدما أصبحوا هنا في أمان أخيرًا!..

"أظنه على حق يا (محب).." قالها (سنحوت) وهو يخرج عن شروده أخيرًا مواجهًا غضب (محب) وحده وهو يحاول أن يشرح له أن تلك الفكرة ظلت تطارده من لحظة خروجهم من البلدة وحتى الآن، وأخبره أنه واثق أنهم لا يمكنهم مواجهة الكاهن وحدهم في ظل حماية المعبد له مهما فعل، لكن إن اجتمع كل أهالي البلدة على الوقوف أمامه سيمكنهم ذلك. ثم قال مختتمًا حديثه: "إن المعبد لن يلتفت إلى أصواتنا ونحن مجرد مجموعة أفراد.. لكن أن تثور البلدة بأكملها ضد أفعال كاهنها.. فهذا يعني الكثير!.." فتوترت (ماني) وعلت البسمة وجه الشيخ، بينما انزوى (أوناس) يراقب الموقف في صمت!..

مرت لحظة و(محب) ينظر في عينيّ (سنحوت) مباشرة قبل أن يلوح بذراعه قائلًا إن ذلك كله لن يعني أي شيء مما يتخيل، وسيظل المعبد يحمي الكاهن مهما بلغ طغيانه وفساده، فتدخل الشيخ قائلًا إن المعبد لو غض بصره حينها عن ثورة البلدة فذلك سيحرج المعبد نفسه، وفجأة اتسعت ابتسامة الشيخ وانتقلت عدواها للجميع، ورفع (محب) حاجبيه في دهشة حين فوجئوا بالوالد يتقدم نحوهم قائلًا: "إن ذلك الشيخ على حق.. لو ثارت البلدة بأكملها على ذلك الكاهن فإن المعبد سيعيد النظر بالتأكيد في دعمه له.." ولم يتوقع (أوناس) أن يقترب من النجاح في مسعاه بتلك السهولة!..

***

obeikan.com

obeikan.com

الشعب يريد...

obeikan.com

obeikan.com

ظلت (ماني) متمسكة بتلك الدمية القماشية طوال الطريق، تنظر إليها وتبتسم لها وتحتضنها إذا غفت قليلًا كأنها طفلتها الصغيرة. كانت (مير-يام) تبكي وهم يستعدون للرحيل وأخذت تتمسك بثوب (ماني) في حزن، مما جعل (ماني) تركع إلى جوارها لتحاول تهدئها وتطلب منها ألا تبكي، فأخبرتها الطفلة أنها ليست حزينة لأنها لن تراها ثانيةً، بل هي حزينة لأن (ماني) سوف تنساها حين ترحل وهي تحبها كثيرًا، فاحتضنتها (ماني) وهي تعدها ألا تنساها أبدًا!..

"خذيها.." قالتها (مير-يام) وهي تعطيها الدمية الصغيرة كي تتذكرها بها، ومدت يدها تجذب عقد الجعران الذي يحيط بعنق (ماني) تريده في المقابل، فنظرت (ماني) نحو (سنحوت) الذي أخبرها أن تمنح الطفلة العقد لو أرادت وسوف يحضر لها بديلًا عنه حين يعودون إلى الوادي، ثم ربّت على شعر الطفلة وابتسم!.. حين يعودون إلى الوادي!.. لم تكن تتخيل الرحيل عنه من البداية والآن يردد ذهنها لفظ "العودة" باستغراب وعدم استيعاب وقلق، ولكن.. بسعادة!..

***

"إن ذلك الشيخ على حق.." ترددت جملة والد (ماني) تلك في ذهن (سنحوت) فابتسم وهو يتطلع نحوه في تقدير، لقد بدت ملامح الأب

المسن أشد قوة وعزمًا، وحتى هذه اللحظة لم يتصور أن يكون هو المبادر بقبول ما فكر به وما أتى به (أوناس) أيضًا!..

كان (سنحوت) يحمل بداخله أفكارًا متناقضة لا تنعكس على هدوء محياه، كانت الفكرة الغالبة بالطبع هي قلقه على (ماني) وأسرتها والحرص على حمايتهم وإبقائهم سالمين، لكنه رغمًا عنه - ومع عودة (محب) للظهور في كادر الأسرة - وجد منافسًا له في تلك المسئولية التي كانت أغلب الأوقات على عاتقه وحده. اعترف (سنحوت) لنفسه أنه يغار من (محب) رغم صداقتهما ونشأتهما سويًا، وتمنى أن يلتفت سريعًا للاهتمام بزوجته وأسرته الجديدة ليترك له كل ما يتعلق بحبيبته (ماني)!..

التفت نحو (أوناس) الغافي إلى جواره، واعترف أيضًا أنه يبدو له غامضًا جدًا بصمته المستمر هذا وحزنه المريب، إن جراح فقدان الزوجة والابن حقًا لا يمكنه هو نفسه تصورها، لكنه يشعر كما لو كانت هناك حلقة ما مفقودة في حديثه هذا!.. وتساءل فجأة، هل ما يتسلل إلى سمعه الآن هو بكاء (أوناس)؟!..

***

"هذا جنون!.. واهمون لو ظننتم أن أحدًا سيساندنا!.. الناس خائفون!.." تذكر (محب) أنه هتف بها في وجوههم جميعًا في تلك الليلة بعد أن طلب والده من الجميع التجمع في دارهم في تلك القرية السيناوية، وها هو يدير عينيه في أفراد أسرته السائرون معه نحو الوادي من جديد، ولا يدري كيف وافقهم على ذلك الجنون وتحمل حتى الآن قلقه على أبوين هو الابن الأكبر لهما، وشقيقة وحيدة قصّر كثيرًا في حقها عليه، وزوجة محبة تبعته مسلمة له كل حياتها دون أدنى تفكير وبسعادة خالصة!..

كان قد فوجئ بما قاله والده بالقرب من دار الشيخ ردًا على ما اقترح (أوناس) وبرره (سنحوت)، وأخذ يتطلع نحو (ماني) كأنما هناك من يهم باختطافها أمام سمعهم وأبصراهم، ثم حوّل نظره نحو (ددت).. لقد شطر الخوف قلبه لنصفين امتلكت هي نصفه ومن قبله حبه!..

لم يكن (محب) أبدًا جبانًا، لكنه أيضًا لم يكن ذا قلب صلد، وكان دائمًا يطارده هاجس أنه مقصر نحو عائلته رغم أنهم كانوا دومًا سعداء لسعادته، وبعد ما حدث لهم أضيف إلى ما يشعر شعور بالذنب لأنه فضّل العمل بعيدًا عن أسرته ومساعدة والده، وشعر أنه ربما لو كان بجوارهم ما كان حدث شيء من ذلك كله، وحين أفضى لهم ليلتها بما يكن لهم في نفسه قبلت أمه رأسه وأخبرته أنه القدر

الذي ليس بيد أيهم، وأنها تحمد الآلهة في النهاية على أنه كان بجوار أخته في القصر لينجدها من بين أيديهم!..

حديث أمه وحماسة أبيه المفاجئة طمأنوا قلبه قليلًا، فأخذ يدير عينيه فيهم ويستمع لهم في رويّة أكبر، على عكس (أوناس) الذي كان يجلس في استكانة مريبة، جعلت (محب) يحمل له بداخله شعورًا كان مزيجًا بين الغيظ - لتلك الفكرة التي أتاهم بها - والشفقة مع ما يحمل من ألم بداخله!..

***

استندت (ددت) على ذراع زوجها وهي تسير في العودة أبطأ كثيرًا من القدوم، لا تدري لم تشعر بذلك الوهن وإن كانت ترادوها فكرة ما.. هي فكرة بديهية في نهاية الأمر على أية حال.. أليست عروسًا جديدة، أمر طبيعي إذن لو كان ما تفكر به قد حدث!.. لا.. ربما أصيبت بالبرد ليس إلا.. لكن.. ماذا لو كان الأمر حقيقيًا؟!.. أيمكن أن يكون وهنها هذا يمنح القوة لروح أخرى بدأت تدب بداخلها؟!..

رغمًا عنها وجدت نفسها تراقب (محب) الذي أخذ يعد خيم المبيت هو و(سنحوت) و(أوناس)، وأخذت تفكر لو كان ذلك الخاطر صحيحًا فهي تثقل الحمول عليه أكثر في مثل ظروفهم تلك، هي تثق تمامًا في قدرته

على تحمل ماهو أكثر من هذا، وثقتها تلك هي التي دفعتها لأن تربط مصيرها به رغم الظروف التي عرفته فيها، لكنها تشفق عليه رغم كل هذا!..

ابتسمت (ددت) وهي تريح رأسها إلى صدر (محب) بعد عناء ذلك اليوم الطويل، وسألته في همس عن السبب الذي دعاه للإسراع بزواجهما في ذلك المعبد القروي الصغير مقارنة بمعبد بلدتهم أو أي من معابد الوادي، فأخبرها – وهو يقبل جبينها – أنه لم يكن يستطيع الصبر طويلًا، ولا يعنيه كثيرًا كيف تصبح زوجته، المهم أن تكون!..

***

لم تتمكن الأم من النوم لحظة، نهضت من فراشها تتلفت حولها للاطمئنان على زوجها وابنتها فوجدت (ماني) قد غفت وهي تحتضن العروس القماشية كالأطفال، بينما لم تجد زوجها في الخيمة.

خرجت للبحث عنه وهي ترنو إلى الخيمة التي يبيت فيها (محب) وزوجته، ثم إلى الأخرى التي يبيت فيها (سنحوت) مع (أوناس) وابتسمت، أسرتها الصغيرة بدأت تكبر وتتشعب وتملأ حياتها بالدفء، وبعد أشهر قليلة قد يعود إلى منزلها لهو الأطفال وضحكاتهم الصغيرة وحتى حزنهم الذي يتطاير بقطعة سكر!..

وحول قبس النيران الضئيلة، جلست إلى جوار زوجها تملأها الطمأنينة رغم تلك الظروف، ذلك الرجل الذي عاهدت (إيزيس) أن تصونه وتمنحه حبها واحترامها ما حيت، كان لها أوفى من الزمان الذي أخذ منها كل أهلها بينما بقي هو إلى جوارها حتى قاربت وريقات عمرها القليلة الباقية على السقوط. مال نحوها يسألها ماذا كانوا سينتظرون والظلم لم يترك لهم شيئًا يخافون عليه، ما الذي تبقى إن كان قد طال أملهم في أبنائهم وأعراضهم وأمنهم!.. لا شيء..

"من أجل ذلك يا رفيقتي سنعود.." قالها وابتسم وهو يشعر بقوة كاد أن ينساها مع الشباب الذي ولّى، وخوف - رغم كل شيء - لم يعد يصيبه بالشلل!..

***

"لم يتركوا لنا سوى الدمار!.." قالتها (ماني) في حسرة وعيناها تدور في أنقاض منزلهم الذي وصلوه توًا، كان بالفعل ذلك هو التعريف الوحيد لكل شيء، سيقان النباتات المحترقة التي كان يرى (سنحوت) زهراتها شبيهة بوجنتيّ (ماني).. بقايا المقعد الخشبي الذي استندت إليه وهو يفضي لها بحبه.. طلمبة المياه التي احترقت يدها والتي كان يصعب عليها أحيانًا تحريكها وكان يساعدها هو في تحريكها.. حجريّ الرحى اللذان جالساها طويلًا والآن موصومان بالرماد!..

وفي داخل المنزل وجدت الأم كل شيء مسوّىً بالأرض والسنوات الحلوة مسوّاة بالعدم، فهذا فراش ضم رفاته آهات لذتها الشابة وآلام أمومتها وشيخوختها.. وتلك آنية كانت تقطر فيها من روحها وهي تحضر لهم ما يشتهون من أطعمة.. وذاك مقعد صغير ضم ضحكات أطفالها وبكائهم لأسباب ساذجة.. كلها أشياء أضحت مرتعًا للخراب!..

"من الأفضل أن نذهب للمبيت في داري.." قالها (سنحوت) والمرار يتصاعد من صوته وهو يجذب (ماني) في رفق ليخرجها من أنقاض المنزل بينما وافقه الأب على الفكرة وتبعه هو والباقين وهو يتطلع نحو زوجته المصدومة، كان يعرف أنه من الأفضل لها لو تصورت بقاء الذكرى على حالها وهي بعيدة عنها على أن تعود لمكانها بعد تدميرها على تلك الصورة!..

"أين ذهب (أوناس)؟!.." سؤال (محب) أخرج الجميع من صدمتهم وهم يبحثون عنه في الجوار دون فائدة!..

***

تسلل في خفة من المدخل الخلفي لمبنى السكن الملحق بالمعبد، ولأنه كان يعرف وجهته جيدًا اتجه لأقصى الجهة الشمالية بعيدًا عن جناح الكاهن، عالج باب غرفة بعينها ودلف إليها في هدوء.

ابتسم رغمًا عنه ردًا على ضحكات ذلك الرضيع وهو يربت على كتف النائمة بجواره على الفراش في رفق، اندهش معه لماذا انتفضت على أثره بكل ذلك الفزع!..

بكت في هيستيريا مفاجئة ومرعوبة حين تبينت ملامحه فضمها إلى صدره في قلق يحاول تبين ما بها دون أن يشعر بهم أحد ممن في السكن، بعد لحظة رفعت رأسها نحوه وسألته بحروف من ألم وقهر: "كيف تستأمن ذئبًا على عهد يا (أوناس)؟!.." وتنافست غزارة دموعها مع سيل ما قصته عليه في تلك الليلة!..

***

تعامدت أشعة الشمس على ممر المدخل الرخامي للمعبد وقد تجمع الكثير من أهالي البلدة في ساحته المتسعة، نظرات الإشفاق رسمت ملامحهم وهم يتطلعون إلى جسد (رام) المصلوب فوق قائم خشبي ضخم بمدخل المعبد، بينما ملأت نظرات التلذذ السادي عينيّ الكاهن وهو يتطلع نحوه بعد أن أمر بإحضاره من سجنه الخفي وصلبه على هذه الصورة!..

كان الكاهن يمني نفسه بيوم مليء بإرضاء ذاته المريضة بعدما أتته أخبار عودة (ماني) وأسرتها، فمع شروق اليوم جاء الحرس يخبرونه

برغبة الحارس (أوناس) في المثول بين يديه، وحين سمح له – في لهفة لم يستطع إخفائها – علم منه بوصولهم بالأمس.

"أريد رؤية زوجتي وولدي..." قالها (أوناس) في غضب مكبوت بعد أن أبلغه بالخبر، فأجابه الكاهن أنه لن يفعل قبل أن يذهب ويبلغ (ماني) وأسرتها بقراره إعدام (رام) اليوم، وحين سأله (أوناس) ماذا يتوقع أن يفعلوا أو كيف يتصور انتقامه منهم، قال أنه يكتفي فقط بوجودها في قبضته وتحت سيطرته وسيدع الأحداث تحدد كل هذا لأنها بالتأكيد ستكون في مصلحته هو!..

***

"وذلك كان آخر ما أخفيته عنكم!.." نكس (أوناس) رأسه وهو يقص على الجميع الحقيقة منذ اليوم الأول لمقتل زميليه في السجن أمام عينيه، ثم إخراجه هو ليشاهد داره وهو يستحيل رمادًا مستمعًا لصرخات زوجته وولده ورجال الكاهن يسوقانهما إلى محبسيهما الخاص في سكن المعبد، ثم مساومة الكاهن له كي ينفذ تلك الخدعة ليتمكن من إحضارهم مرة أخرى للبلدة، وحتى تسلله بالأمس إلى غرفة زوجته ومعرفته بما حدث لها، وحديثه في الصباح مع الكاهن أمام جسد (رام) المصلوب عند المعبد!..

ظل (محب) مصدومًا للحظات بينما طوّق (سنحوت) رقبة (أوناس) بيديه ثائرًا – دون أدنى مقاومة منه - بعد أن انطلت عليه خدعته لرغبته هو في العودة من الأساس، فدون أن يشعر نفّذ للكاهن مأربه في بساطة. حاولت (ماني) جذب (سنحوت) بعيدًا دون فائدة، الغريب أنها لم تشعر بالغضب أو الحزن أو حتى الصدمة مما فعل (أوناس)، بل كل ما شغل بالها في تلك اللحظة أن زوجة (أوناس) وقعت ضحية لما هربت منه هي، فصرخت أخيرًا: "اتركه يا (سنحوت).."

وكأنما كانت كلمة (ماني) تلك محركًا لكل شيء، أزاح (سنحوت) يديه عن عنق (أوناس) وهو يدفعه بعيدًا بينما جلس الأب ورأسه بين يديه يفكر، واتجه (محب) أخيرًا نحو (أوناس) يسأله لماذا عاد ليخبرهم؟!.. بكى (أوناس) وأقسم أنه لم يكن أمامه سوى أن يفعل ما أمره به الكاهن، لكنه حين عاد معهم دفعه شيء ما ليرى زوجته وولده قبل رؤية الكاهن، وحين فعل ورآها وقد ملأت الجروح جسدها والذل نفسها قرر الانتقام منه بأي وسيلة، وجاء ليخبرهم أنه رهن إشارتهم الآن لفعل أي شيء للتخلص من ذلك الطاغية!..

صمتوا جميعًا للحظات لم يرتفع فيها سوى صوت (ددت) التي بكت في حرقة على ما وقع لزوجة (أوناس)، ولا شعوريًا مست بطنها وهي تحاول تصور ما قد تفعله لحماية وليدها من أي شر، بكت وهي تلعن ذلك

الذي يدفعهم لإتيان ما لا يتصورونه لخوفهم على شيء وحيد يملكونه في الحياة، وقالت إنها فهمت الآن أن أشد الناس انتقامًا هم هؤلاء الذين لم يعد لديهم ما يخافون عليه. رفع الأب وجهه مع آخر كلماتها وقال: "أنتِ على حق يا ابنتي.." فذلك كان رهانهم الوحيد، والأخير!..

***

كان (رام) في حالٍ متردية جدًا، بكل تلك الجروح في جسده من آثار السياط، وذلك القطع الغائر بجبهته، وكفيه المشدودتين للقائم بحبال غليظة أدمت معصميه!..

ومن أمام مدخل المعبد هتف الكاهن: "جمعتكم اليوم لتروا بأعينكم عاقبة من يخالف أمر (رع).. هذا الرجل خائن لعقيدته.. لقد ساعد تلك الفتاة وأخاها على الهرب من القصر.. ساعدهما غير عابئ بغضب (حابى) علينا أو منعه الفيض عن أرضنا.. هو خائن ومجرم.."

سرت همهمات خافتة بين الأهالي لم تجرؤ على اجتياز شفاههم، ووقف اثنان من الحراس في الجهة المقابلة بعيدًا عن الكاهن ليمنعا مرور الأهالي وقال الأول:

"مسكين هو (رام).. لم يكن يستحق كل الذي ناله.."

"وما الذي كنت تنتظره بعد أن ساعدهما على الهرب؟!.."

"هو لم يكن يعلم بنيتها في الهرب.."

"وما أدراك؟!."

"هو قال هذا.."

"حتى وإن كان ما تقوله صحيحًا فلم يكن الكاهن ليصدقه وها هي ذى النتيجة.."

وأشار إلى (رام) في أسف بينما تابع الحارس الأول حديثه مؤكدًا على ما قاله زميله، لقد تفنن ذلك الكاهن في تعذيب (رام) بأبشع الوسائل، نزع أظافره وتركه ينزف بل وأغرق جروحه بالملح وأشعل النيران في أطرافه، ولليالٍ طوالٍ منعه من النوم بعد أن أغرق زنزانته بالماء البارد، وقال: "هو مجرم بحق.."

"اخفض صوتك.. هل جننت؟!.." فزع زميله وهو يحاول أن يسكته، فتساءل الأول في سخط إلى متى يظلون على رضوخهم المهين هذا، كل البلدة أصبحت تعلم أن الكاهن يستخدم العقيدة كستارٍ لرغباته

obeikan.com

الشاذة، فإلى متى يتحملون، أجابه زميله بأنه لا يدري إلى متى لكن بأية حال عليهم التحمل حفاظًا على حياتهم وحياة ذويهم ولهم فيما حدث للآخرين عبرة، واستدار على صوت أحدهم يسأل الكاهن عن سر معاقبته لـ(رام) حتى بعد أن عفت الآلهة عن (ماني)، فصرخ الكاهن بأن الآلهة عفت عنها حقًا لكنه لن يعفو أبدًا عمن قصّر في واجبه المقدس تجاه أوامر كاهن (آمون)!..

"بدأ البعض أخيرًا في الاعتراض.." قالها الأب وهو يتقدم مع زوجته وأولاده وأزواجهم ليندمج وسط الأهالي، وتطلعوا جميعًا نحو الكاهن الذي أشار لأحد الحارسين حوله فأسرع نحو (رام) وبدأ في جلده بالسوط، أطبق الصمت على ساحة المعبد لا يقطعه إلا صوت فرقعات السوط بين لحظة وأخرى، وأنّات (رام)، وشهقات الفزع الهاربة من حناجر الأهالي، أما الكاهن فأخذ يتطلع للسوط وهو يدمي ظهر (رام) - ربما للمرة المائة – مستمتعًا بذلك!..

بكى الكثيرون و(رام) يكاد يسلم روحه على أطراف سياط زملائه، ولم يعد أحد يدري هل ذلك الموات الذي عشش فيهم اعتياد للون الدم إذ يصيب غيرهم، أم رهبة من أن يحل الدور عليهم تصيبهم بالشلل في مواجهته، أم كلاهما؟!..

***

حاول (أوناس) انتهاز فرصة تجمع الحراس حول الكاهن في ساحة المعبد وتسلل في وضح النهار مرة أخرى إلى السكن الملحق به، كان يريد الخروج بزوجته وولده إلى مكان آمن ليعود إلى الساحة وينضم إلى الباقين. اندهش حين وصله بكاء ولده المتواصل عبر باب الغرفة، فدفعه في حذر ليجد زوجته ملقاة على الأرض والطفل بين ذراعيها اللتين لم تعدا تمتلكان قوة لاحتضانه!..

ضمها إلى صدره محاولًا بث الدفء في جسدها البارد وهو يربت على رأس طفله في جزع، لحظات وفتحت عينيها تحاول النظر إليه وهي تخبره أنها راحلة، أخبرته أن السم سرى منذ ساعات في دمائها وبعد قليل ستذهب!..

"لماذا فعلتِ ذلك؟!.. لماذا؟!.." سألها هاتفًا في جزع، فأجابته بابتسامتها الوهنة - التي وجدت لها طريقًا وسط كل هذا العذاب - إنها كانت فقط تنتظره لتذهب، لم تكن تريد الرحيل وترك ولدها بين أيديهم، أما الآن وقد عاد فعليها الرحيل بما تحمل من جراح.. ودنس!..

***

اندفع فجأة فتى من بين الأهالي حاملًا بعض الحجارة ليقذف بها الكاهن وحراسه صارخًا في غضب: "كفى أيها السفاح.. كفى.. اتركه لحاله.. اتركنا جميعًا.. يكفي ما فعلته بنا.."

رنا نحوه (رام) يطلب منه أن يبتعد هو كي لا يتأذى، فأجابه الفتى أنه لم يعد يحتمل، واستمر في إلقاء الحجارة نحوهم مما جعل الكاهن وحراسه يبتعدون نحو الوراء قليلًا والكاهن يأمر حراسه بإيقاف الفتى، وفي لحظة طوقوه ليوسعوه ضربًا وركلًا أمام أعين الجميع ووسط هتافهم المحتج – الذي أثار قلق الكاهن - وصراخ الفتى ألمًا!..

لكن صراخ الفتى كما بدأ فجأة توقف فجأة، فابتعد الحراس مشدوهين مما فعلوا، ووقفوا يتطلعون نحو جسده الذي سكن تمامًا بلا حراك، وتمتم أحدهم في فزع وهو يتطلع لكفيه وآثار دماء الفتى عليها: "أيتها الآلهة!.. ما هذا الذي فعلناه؟!.."

ساد الصمت للحظات إلا من أصوات البكاء، التي قطعها بعد لحظة صراخ امرأة ألقت بنفسها على صدر الفتى وهي تضمه باكية: "يا ولدي.. ماذا فعلت بنفسك وبي؟!.. آآآآه.."

وعاد الحارس يتمتم في هلع هذه المرة أنه لم يقصد، لقد كان ينفذ الأوامر فقط، وجثى على ركبتيه منهارًا وهو يمسح دماء الفتى عن يديه في جنون، بينما التف الجميع حول المرأة في صمت!..

"كفى.. قد نال جزاءه الذي يستحق لاعتدائه على ممثل إلهكم (رع).. احملوه من هنا أيها الحراس.." هتف الكاهن بها بعد أن بدأ الخوف يتسلل إلى ملامحه لأول مرة، فصرخت الأم وهي تحتضن ولدها: "لاااااا... لن ينتزع أحدكم ولدي مني.."

ومع حركة الاعتراض الظاهرة من الأهالي تراجع الكاهن في خوف وهو يشير للحرس ويأمرهم ألا يدعوا أحدهم يقترب منه، في تلك اللحظة تقدم والد (ماني) ليجلس أرضًا بجوار جثة الفتى في صمت، وتبعته أمها، و(ددت)، وأخيرًا هي بحيث تكون في مرمى بصر الكاهن، وليكونوا حاجزًا أمام مدخل المعبد فلا يدخل أو يخرج منه أحد!.. اتسعت عينا الكاهن غير مصدق وهو يتمتم: "(ماني)!.."

تدافع بعض الأهالي للانضمام إلى الجالسين أمام مدخل المعبد - دون حتى أن يدروا لم يفعلون هذا - وهم يحاصرون الحرس الذين قتلوا الفتى منذ لحظات، بينما صعد بعضهم الآخر إلى أعلى الممر ليحل وثاق (رام) والبعض الأخير – ومعهم (محب) و(سنحوت) - فاجأوا حراس مدخل المعبد وتقدموا نحوهم ينتزعون رماحهم ليحولوها إلى حواجز

معدنية تمنع تقدمهم نحو الساحة، فكانت النتيجة احتجاز الكاهن بين مدخل المعبد والحرس الذين أمامه!..

أطبق السكون على الساحة بشكل مفاجئ، فلم يعد مسموعًا سوى صوت الأم الجاثية على جثة ولدها تبكيه، وصراخ الحارس الذي اشترك في قتله كما لو كان قد جُن، بينما هتف الكاهن في لهجة حاول أن تبدو متماسكة: "هل جننتم؟!.. ماذا تريدون الآن؟!.. إنني.. ممثل الآلهة بينكم!.. سينالكم غضبها!.." إمارات الرعب المرتسمة على ملامح الكاهن كانت جلية أمام هتافات الناس الغاضبة، وأخذ يتراجع نحو المعبد وهو يتطلع نحو (سنحوت) و(محب) اللذين أسرعا يساعدان (رام)، فحملاه إلى الساحة ووسداه الأرض بجوار الفتى، بينما أخذ الكاهن يصرخ في هستيريا تتزايد سائلًا ماذا يريدون منه!..

"لن نرحل من هنا قبل أن ترحل عنا إلى الأبد!.." هتف بها الأب أمام ذهول الكاهن واندهاش البعض كأنما اكتشفوا مطلبهم الحقيقي لأول مرة، لكن سرعان ما بدأ المعتصمون بالهتاف: "ارحل.. ارحل.." بينما أخذ الكاهن يصرخ طالبًا نجدة الحرس من داخل المعبد، وخرج بعضهم بالفعل على صوت تلك الهتافات لكنهم لم يتحركوا لنجدته كما تصور بعد أن فهموا الموقف من النظرة الأولى، فها هي ذى القيود

التي كبلهم بها تتساقط أمام انكشاف حقيقته الهشة الواهية، فلم يعد هناك مبرر لخشيتهم منه بعد ذوبان قشرة الوهم من حوله!..

"ارحل.. ارحل.. ارحل.." ظلت تتعالى الهتافات أكثر فأكثر، بينما ازدادت أعداد المعتصمين حول المعبد لتتحول الساحة إلى أرض سمراء ترتج سماؤها أخيرًا برفض القهر والإهانة، لكن فجأة برز (أوناس) فوق ممر المعبد وهو يحمل طفله الباكي ويهتف محاولًا تبديل هتاف المعتصمين: "لن يرحل.. لن يرحل.." ومال نحو (ماني) يناولها الطفل في رفق لا يتناسب وقسوة كلماته منذ لحظة، وتطلع نحو الطفل الذي هدأ بكاؤه قليلًا وهو يلهو بالدمية القماشية التي علقتها (ماني) على كتفها.

كان هتاف الناس طلبًا لرحيل الكاهن مستمرًا حين تقدم (أوناس) نحو الكاهن – دون أن يحاول أحد منعه - وهو يكرر هتافه بأنه لن يتركه يرحل، فتراجعت أصوات الناس وهو يقول بصوت لاهث مقتربًا من الكاهن: "لن ينقذه من يدي أحد!.." انكمش الكاهن بين يديّ (أوناس) في ذهول غير مصدق أن الجميع قد تخلوا عنه، حاول (سنحوت) و(محب) أن يخلصا الكاهن من بين يديه ويقنعاه أنهم سيجبرونه على الرحيل دون فائدة، وبينما تجمد الكاهن في ذهول كان عقله يدور في سرعة جنونية، هل يتصورون حقًا أنهم سيهزمونه؟!. هؤلاء الرعاع الأغبياء!.. ما هم إلا زمرة من عبيده ولن يستطيعوا أن يمسوه بسوء!..

ليسوا قادرين على ذلك.. نعم.. بل لا.. لن يتراجعوا هذه المرة!.. فماذا يفعل؟!..

فجأة جذب نفسه من قبضة (أوناس) ليندفع هاربًا من حديقة المعبد بعد أن سحب أقرب المشاعل المعلقة على الحوائط إليه وألقاها بين الأهالي وهو يصرخ: "لن تنالوا مني أبدًا.. أبدًا.." واندفع (محب) و(أوناس) و(سنحوت) من خلفه، بينما حاول (رام) أن يرفع صوته الواهن ليصل إلى مسامع (ماني) القريبة منه وقال: "لقد بدأت النيران تمتد إلى الألواح الخشبية في الحديقة.."

وبحركة لا إرادية ابتعد المعتصمون للجهة المقابلة للمعبد وهم يشاهدون النيران تلتهم الحديقة، بينما ضمت (ماني) الطفل إليها وهي تتلفت حولها باحثة عن والديها و(ددت)، وحين اطمأنت على أنهم بخير تسمّرت في مكانها وهي تشاهد النيران تلتهم كل شيء حول المعبد!..

المدهش أنه من بين الصراخ والأدخنة الخانقة وجدت الطفل يضحك بين يديها أكثر، لقد كان سعيدًا بانعكاس النيران على وجه الدمية القماشية ذات الرداء الأحمر والضفائر الحالكة، وابتسامتها الموشومة بين وجنتيها الشبيهتين بلون الغروب!..

***

"وحصل إيه بعد كده يا ستي؟.." سألت (مُنية) جدتها عن نهاية الحكاية في شغف، كانت تتمنى لو قُتل الكاهن الشرير الذي أحزن كل هؤلاء الناس، لكن جدتها - التي انشغلت عنها بسلق بعضًا من عظام كائن ما وإعداد الحساء منه – أجابتها بأنها لا تعرف. عاد الجوع الذي نسيته الفتاة مع استماعها للحكاية يتسلل إلى أمعائها ثانيةً، وعادت هي تسأل جدتها في إلحاح كيف لا تعرف، فاستدارت جدتها متكئة على عصاها الخشبية وهي تجلس على طرف تلك الأريكة ذات الأغطية المزركشة وقالت: "خلصت الحكاية كده يا (مُنية).. ماحدش عارف الكاهن ده بقى هرب ولا مات ولا خفي في أنهي داهية.. كل اللي نعرفه إن أهل البلد قالوا محناش عايزينه خلاص..."

ومع آخر حروفها تعالت الطرقات على باب منزلهم الصغير في قوة فهتفت المرأة في استنكار: "بالراحة ياللي بتخبط.. روحي افتحي يا بنتي قبل ما الباب يتخلع.." فتحت الفتاة لتجده خالها يحمل صندوقًا متوسط الحجم، وقد كان يطرق الباب بقدمه لذلك كان الطرق عنيفًا، وبينما أخذت أمه تعنفه على ذلك متناسية حتى سؤاله عما يحمل بين يديه ولائمة إياه على ما فعل ومنبهة عليه أن يحرص في المرة القادمة على الطرق برفق لأنهم لا يملكون ما يصلحون به الباب إن خُلع كما تقول، كانت (مُنية) تعبث في الصندوق الذي وضعه خالها على الأريكة بجوار الجدة لتجد بداخله أكياس أرز وسكر ومكرونة،

وزجاجات زيت وعلبة سمن متوسطة فهتفت لتسكت جدتها وقد تهللت قسماتها: "ده أكل يا ستي!..."

وفي لحظات، كانت الجدة قد بدأت تعد بعضًا مما حواه الصندوق وهي تستمع لما يقصه الخال عن صندوق آخر وورقة ما، كان على الجدة أن تكتب فيها علامة "صح" لتوافق على شيء ما لا تدركه هي أيضًا!.. وتساءلت (مُنية) في نفسها لماذا كل مرة يأتي فيها خالها حاملًا مثل ذلك الصندوق يكون هناك مقابل يجب عليه هو وجدتها أن يفعلاه؟!.. فماذا لو لم يريدا أن يفعلا ما يجب أن يفعلاه، أكانوا سيحرمون مما في ذلك الصندوق؟!..

لذلك، حين قدمت لها جدتها طبقًا به بعض الأرز الأبيض كانت قد فقدت شهيتها تمامًا، فنحت الطبق بعيدًا وقالت: "ماعدتش جعانة.." وانزوت في ركن بجوار النافذة تلهو بدميتها "عسلية" التي أخبرتها جدتها ذات مرة أنها كانت لعبتها وهي طفلة، وأصبحت لعبة ابنتها – أم (مُنية) فيما بعد، كانت الدمية قماشية.. ذات رداء أحمر وضفائر حالكة ولها ابتسامة موشومة بين وجنتيها الشبيهتين بلون الغروب!..

تمت بحمد الله

Open Kan.com

المراجع

مصر القديمة ..... {د / عيد مرعى }

قصص الأنبياء ..... { ابن كثير}

الخروج من التابوت ..... { د / مصطفى محمود }

obeikan.com

إصدارات سابقة

حلم الجواد الأبيض ..... قصص قصيرة

قبلة حارة الألوان ..... قصص قصيرة

مسك أبيض ..... رواية

ستيتة ومرزوق .....حلقات إلكترونية

ليالي شهريار ..... حلقات إلكترونية

للمراسلة...

amira.ezz.eldeen@gmail.com

openkan.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

Noon_publishing@yahoo.com

ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢ ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧

obeikan.com